

رحلة أبي الحارث

تأليف

الشيخ الأديب

محمد بن علي بن خميس البرواني

(ت ١٣٥٧هـ / ١٩٥٣م)

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

حقوق الطبع محفوظة
لوزارة التراث والثقافة

سلطنة عمان - مسقط
ص.ب: ٦٦٨ الرمز البريدي: ١١٣ مسقط

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

تقديم

سماحة الشيخ العلامة / أحمد بن حمد الخليلي

الحمد لله أهل الشكر والحمد ، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى ورسوله المجتبي ، وعلى آله وصحبه وكل من بهديهم اهتدى ، ، أما بعد :

فإن من شأن اللبيب - وهو يفتح بصيرته ويحدق بصره في العالم وتنوع مناخاته واختلاف شعوبه - أن تكون له وقفة تأمل في كل ما يطلع عليه إذ الكون كله سفر حافل بآيات الله تعالى الصامته والناطقة الداعية إلى الاعتبار والاستبصار ، وكم للناس في أحوالهم ومعاشهم وتنوع مشاربهم في الحياة وتباين تصوراتهم وعاداتهم ، وتعدد وجهاتهم واتجاهاتهم من دروس وعبر، تتجلى لأولي الألباب؟.

من أجل هذا دعا الله عباده من أجل المسير في الأرض
للنظر والاعتبار، والتفكر والادكار، وقد حُب إلى الناس
الاطلاع على ما لم يكونوا رأوه من قبل فمن هنا شُحذ أولو
العزائم همهم لقطع المسافات وركوب البحار واجتياز
الفيافي والقفار ليطلعوا على ما لم يكونوا رأوه من قبل فمن
هنا شُحذ أولو العزائم همهم لقطع المسافات وركوب
البحار واجتياز الفيافي والقفار ليطلعوا على ما لم يكونوا
رأوه من قبل من أحوال البشر وعجائب البلدان وطبائع
المناخات وتباين المشاهد، وكان لكل نصيبه من ذلك فمنهم
من لم يتجاوز نظره قشور مرئياته ومنهم من لم تشغله
القشور عن اللباب، فنفذ ببصيرته إلى الأعماق، ليميط
الأغشية عن الحقائق، فيستجليها ويجليها لأولي الأبصار.

وقد تنافس أولو الملكات البيانية في صياغة مشاهدهم
من سياحاتهم صياغة أدبية تجلوهاتيك المشاهد كأنما يبصرها
قارئها رأي العين، لما لعمق بيانهم وطلاوة أسلوبهم من

تأثير على الأنفس ، فيتمتع القارىء كما تمتع المشاهد بجمال المناظر واكتشاف الحقائق ، ولا غرو فإن من البيان لسحرا .
وإن ممن جرى في هذه الحلبة فبز الأقران بيبوبه السباق الشاعر المفلق والكاتب الأديب الشيخ أبو الحارث محمد بن علي بن خميس البرواني في رحلته إلى البلاد المصرية والشامية ، التي كانت في العقد الرابع من القرن الرابع عشر الهجري إذ أروع ما سجله يراه الموهوب - في هذه الرحلة الأدبية الراقية - بديع مشاهده وملابساتها منذ بداية انطلاقه حتى آب إلى مسقط رأسه جزيرة زنجبار التي كانت نقطة انطلاقه ، كما أودع ذلك مكنون فكره الوقاد ونظرته الفاحصة ورؤاه المتميزة ، لكل ما وقع عليه ناظره مما يشد الانتباه ويلفت الألباب .

فكانت رحلته هذه بحق جديرة بأن تعد ملحمة أدبية فذة ، وروضة بيانية زاهرة يجد من دخلها وطاف بأرجائها ما

تشتهي نفسه وتلذذ عينه ، فهي - بلا ريب - السحر الحلال
الآخذ بمجامع الألباب .

وقد عني حفيده مبارك الطلعة ميمون النقيبة الشاب
نبهان بن تغلب البرواني بدراسة رحلة جده هذه والتقديم
لها بما يزيد قارئها بهجة وإعجاباً ، ولا غرو فما الفرع إلا
امتداد أصله وما هذا الشبل إلا من ذلك الأسد ، وإنا لنرجو
له مستقبلاً واعداً إن شاء الله .

فإلى رواد البيان وعشاق الأدب هذه الروضة الناضرة
التي فيها كل ما يمتع الذوق ويرهف الحس ويرضي الوجدان
والله تعالى ولي التوفيق وصلى الله وسلم على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين .

أحمد بن حمد الخليلي

المفتي العام لسلطنة عمان

مسقط / ٣ محرم ١٤٣١ هـ

شذى العبير الروحاني
بذكر بعض أخبار
العلامة محمد بن علي البرواني

بقلم حفيده

نبهان بن تغلب بن هلال بن محمد البرواني

نسبه :

هو الشيخ الأديب أبو الحارث محمد بن علي بن خميس
بن سالم بن راشد بن عامر بن راشد بن سالم بن سعيد بن
عامر بن خلف بن سنان بن عبدالله البرواني ، يتصل نسبه
إلى الحارث بن كعب بن اليحمد الأزدي (١) .

وفي ذلك قال الشيخ محمد بن علي البرواني :

تَقْدُ أديم الأرض وخُداً بهم نُبُ	أما والذي تسعى إلى بيته الركبُ
بهم تدفع الجَلَى وتستمطر السحب	وتربة آباءٍ كرامٍ نجارهم
فهم سادةٌ نُجِبٌ غطارفةٌ غَلَب	شماريخ من علياء كعب و حارث
إلى أن غدت تأوي إلى ظلها العُربُ (٢)	علوتُ بهم في المجد ذروةً باذخ

فهو ينتمي إلى أسرة عرفت بالعلم والجاه والكرم ، قد
برز منها العديد من القادة والأفذاذ والعلماء والولاة ،
كأمثال الفقيه الشيخ الوالي خميس بن بشير بن عبد الله

(١) شجرة نسب لقبيلة البراونة ، الشيخ سالم بن محمد بن سعيد بن عبد الله
البرواني ، عام ١٩٦٦ م .

(٢) معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين .

البرواني الذي كان عاملاً للإمام سلطان بن سيف بن مالك
اليعربي ، ووالياً في عهد الإمام بلعرب بن سلطان اليعربي ،
وابنه الفقيه الشيخ الوالي سعيد بن خميس البرواني الذي
كان والياً في زمن الإمامين سيف بن سلطان وسلطان بن
سيف الثاني اليعاربة ، وسليل المجد والشرف الشيخ عبد الله
بن سالم بن عيسى البرواني الذي امتاز بالكرم واعتلى قدراً
وشأناً بين عشيرته ، والشيخ القائد محمد بن جمعة البرواني
الذي أخضع للسلطان سعيد بن سلطان البوسعيدي جميع
موانئ ساحل مريما (تنجانيقا) ، وتمكن من طرد الملاجشين
منها ، والشيخ الشهيد بشير بن سالم البرواني الذي حارب
الألمان في البر الإفريقي وغيرهم الكثير...

وعلى هذا النهج اقتفى الشيخ محمد بن علي البرواني
سيرة آبائه فكان خير خلف لخير سلف ، وفي ذلك قال
الإمام الداعية الحبيب أحمد مشهور بن طه الحداد :

كريم نجار من أعظم أسرة ترقى من العلاء فوق سنام
فيا لك من ندب له الحلم والوفا وسامان إن يعلو امرؤ بوسام (٣)

نشأته :

يبرز نشأة أبي الحارث من قول الشيخ العلامة أبو مسلم
البهلائي فيه :

نشأت من عنصر زاك أرومته تتلو مفاخرها الأجيال والأمم
شرط عليك مزاياهم ومجدهم فأنت للشرط والمشروط ملتزم (٤)

ولد أبو الحارث في حارة الباغ من أرض زنجبار عام
١٢٩٦ من الهجرة ، وبها ترعرع ونشأ على كنف والده
الشيخ علي بن خميس البرواني (١٢٦٧ هـ - ١٣٠٤ هـ)

(٣) ترجمة الإمام الداعية أحمد مشهور بن طه الحداد ، تأليف السيد حامد بن أحمد ،
دار الفتوح الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ ، انظر ص ٣١

(٤) ديوان أبي مسلم البهلائي ، اعتنى بجمعه الشيخ سالم بن سليمان بن سالم بن
عديم البهلائي ، نسخة مصورة من المخطوط بمكتبة جامعة السلطان قابوس .

الذي يعود أصوله لسفالة إبراء من شرقية عمان ، أحد أكابر علماء الشافعية في زنجبار ، أخذ علمه من صفوة علماء ذلك الزمن من أمثال الشيخ القاضي محمد بن سليمان المنذري والشيخ القاضي يحيى بن خلفان الخروصي ثم لازم الشيخ خميس بن سالم الخصيبي ثم تلقى العلم من الشيخ محمد بن صالح الفارسي الذي تتلمذ على مفتي مكة السيد أحمد دحلان ، وفيه قال الشيخ سعيد بن ناصر الغيثي : "كان قد تفنن في العلوم وشهد له الشيخ صالح بن علي الحارثي ، لأنه كان رحمه الله يقول إن من يشاء أن يعارض حججه فليكن كعلي بن خميس أو نحو هذا من قوله فيه رحمه الله" (°).

وللشيخ علي بن خميس البرواني العديد من التلامذة منهم العلامة السيد منصب بن علي (ت ١٣٤٦هـ) خطيب مسجد الجمعة في فرضاني منذ عام ١٢٩٩هـ الى عام

(٥) إيضاح التوحيد بنور التوحيد ، الشيخ سعيد بن ناصر الغيثي ، انظر ص ٤٢٤ الجزء الأول للطبعة الأولى ١٩٩٦م.

١٣٣٧هـ من الهجرة والذي ترأس الجمعية السنوية عند إنشائها ، والشيخ عبد الله بن وزير (ت ١٣٢٢هـ) الذي كان مفتياً ومسؤولاً للأوقاف في زمن السيد علي بن سعيد ، والسيد حسن بن محمد بن حسن جمل الليل (ت ١٣٢٢هـ) والسيد عبد الرحمن بن أحمد جمل الليل (ت ١٣١٥هـ) .

عندما بلغ أبو الحارث الثامنة من عمره ، اختطفته المنية والده الشيخ علي بن خميس البرواني في الثالث من شهر شوال عام ١٣٠٤هـ^(٦) ، فقامت برعايته وعنايته والدته جوخة بنت محمد (ت ١٣٥٩هـ) صاحبة الأموال الطائلة في زنجبار ، وجدته العالمة الشيخة ربياً بنت علي بن عامر البروانية التي كانت مثلاً للنساء الصالحات العابدات فقد عرفت بالاستقامة والورع وكان لها مجلس عامر بالنساء

(٦) المرجع السابق ص ٤٢٤ ، يقول الشيخ الغيثي : وقد أخبرني الثقة عن الشيخ علي بن خميس البرواني أنه كان يأتّم في الصلوات المفروضة خلف أنمة الإياضية ... ، وأنه صلى الظهر وإياه في مسجد الشيخ محمد بن سليمان المنذري في يوم الفطر جماعة وذلك قبل موته بيومين . انتهى .

وطالبات العلم^(٧)، وقد ذكر الشيخ سعيد بن ناصر الغيثي عن والدته الشيخ علي بقوله: "والدته ابنة عم والده فهي رياء ابنة علي بن عامر بن راشد يلتقيان براشد وهي امرأة مشهورة موصوفة بصفات جميلة"^(٨).

وعلى هذه الأجواء الإيمانية كانت بدايته بكتاب الله العظيم ثم ارتقى إلى مستوى المتلمذين العلميين بعبقريته الفذة وفطنته الشديدة وحافظته الممتازة وكان كثير الاطلاع والقراءة من مكتبة والده الكبيرة التي آلت إليه، حتى أصبح ملماً بالعديد من العلوم كال تفسير والحديث والسير والنحو والعروض والفلك وقد شهد له بذلك الكثير من معاصريه .

(٧) رواية شفهية من الوالدة نائلة بنت محمد بن علي البروانية، الأحد ٢٠ ذو القعدة ١٤٣٠ هـ .

(٨) ايضاح التوحيد بنور التوحيد الجزء الأول ص ٤٢٣ .

صفاته :

يقول العلامة أبو مسلم البهلاني فيه :

عرفت فيك كملاً لا يقوم به وصفٌ ولو كثرت في وصفه الكلم
وما كمالك دعوى مادم ملق وإنما الشاهدان السيف والقلم^(٩)

عرف الشيخ بالصفات الساميات في مختلف السجاي ،
فهو صاحب الأخلاق الحميدة والمزايا الفاضلة والكرم
الحاتمي والاستقامة المتناهية والتواضع التام والزهد والابتعاد
عن ملذات الدنيا ، وصاحب هيبة عظيمة ، جمالي دائم
على الثياب البيض مستديم على الروائح الطيبة كالعود
والمسك والعنبر ، طلق الوجه كثير الابتسامة ، زكي النفس ،
محبٌ لعمل الخير والاستماع لأخبار العلماء والأفاضل ،

(٩) ديوان أبي مسلم البهلاني، اعتنى بجمعه الشيخ سالم بن سليمان بن
سالم بن عديم البهلاني، نسخة مصورة من المخطوط بمكتبة جامعة السلطان
قابوس .

أديبٌ لا يبخل على أحد في العلم، مراعي لحقوق الأهل
والجار، من الناسكين المتعبدين .

أعماله :

١- الدعوة إلى الله .

قال تعالى : (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ
صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (١٠)

كان أبو الحارث على سيرة والده الكريم ، لا يحب
الدخول في أمور الدنيا وقد قرر أن ينتقل إلى الريف بعد
وفاة الكثير من أصحابه ، وذلك في سبيل نشر العلم
والدعوة إلى الله ، استقر في مزرعته بدونجا التي آلت إليه
من جهة والده ، وله فيها برزة خاصة متصلة بمكتبة تحوي
عدداً كبيراً من الكتب الإسلامية ، ففي الصباح يقوم بتعليم
النشء دروساً في الفقه واللغة العربية ، وبعد العصر يفتح

(١٠) فصلت الآية [٣٣]

مجلسه للجميع ويتناقش مع الناس أمورهم اليومية ويعمل على حل مشاكلهم ويتخلل ذلك بعض النصائح الدينية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وخلال السنة يخرج للدعوة إلى الله فينتقل إلى سواحل زنجبار كناحية باجي وماكندوشي وله فيها مساكن ، فيأتي إليه أبناء تلك المواطن والقرى المجاورة لأخذ نصيبهم من التعليم الديني ، وقد دخل على يديه مجموعة إلى الإسلام من ضمنهم بعض عماله الذين كانوا يدينون بغير دين الله ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خير لعلي رضي الله عنه : " فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمر النعم " (١).

والمتمعن في هذا الحديث يعرف منزلة هؤلاء الدعاة الذين بذلوا كل غالٍ ونفيس من أجل إعلاء كلمته عز وجل.

(١١) رواد البخاري (٢٧٨٣) مسلم (٢٤٠٦)

٢- عمل في مصالح الناس وخدمتهم فكان أحد نظار الأوقاف ، ذلك بما يتمتع به من الثقة والأمانة لدى الجميع (١٢) .

٣- تولى منصب سكرتير الجمعية السنية وهي جمعية تأسست في عام ١٩٢٧م ترأسها في البداية السيد منصب بن علي ، ومن الأخبار التي وردت في ذلك ما كتب عن خبر الاحتفال ليلة الإسراء والمعرج : "أقامت الجمعية حفلتها الليلية بتلاوة نص المعراج في الجامع الكبير، فبالميعاد المحدد توافد أعيان البلد وكبرائها برئاسة سكرتيرها الشيخ محمد بن علي بن خميس البرواني إلى ذلك الجامع ؛ الذي كان يتلمع بأنواع [المصابيح] الكهربائية ، تحسبها نجوما تسر الناظرين ، لسماع القصة ، وهناك افتتح الشاب عبد الله موني بعشر

(١٢) هناك إشارة إلى ذلك انظر جريدة الفلق الصادر يوم السبت ١٥ ذي القعدة ١٣٥٧ هـ.

آيات من سورة الإسراء، ثم تليت القصة وأناشيد التلاميذ كانت تتخلل على رؤوس فواصلها.

ثم قام الأستاذ حسن عمير بالنيابة عن رئيس الجمعية الشيخ الجليل عيسى بن علي البرواني بتأدية شكر الجمعية للحاضرين، ودعاء جلالة السلطان المعظم وصاحب السمو الملكي ولي العهد. وانفض المجلس والساعة الرابعة، وألسنة القوم رطبة بالشاء. (١٣).

آثاره العلمية :

١ - مقامات أبي الحارث: تذكر الدكتورة آسية بنت ناصر البوعلي في دراستها لهذه المقامات بعنوان قراءة أولى لمقامات البرواني: " في رأينا إن هذه المقامات تعكس بشكل أو بآخر ثقافة البرواني، إذ يتضح من الوهلة

(١٣) الفلق. انظر العدد (٥٠٦) الصَّادِر يوم السَّبْت: ٢٩ رجب ١٣٥٧ هـ / ٢٤ سبتمبر

الأولى تأثر البرواني بسابقه من كتاب المقامات ، فهو ينهج نهجهم في هذا الفن ، كما يتضح من تضمينه نصوصاً دينية وأخرى أدبية : بلاغية وشعبية وثالثة تاريخية ، أن البرواني كان شغوفا بالاطلاع والقراءة ؛ إذ من المستحيل أن يضمن مقاماته نصوصاً أخرى دون أن يكون له دراية بها أو اطلاع مسبق عليها .

ويقول السيد حامد بن أحمد المشهور الحداد : " ومن الشخصيات الأدبية والعلمية في زنجبار : الشيخ محمد بن علي البرواني ، مؤلف مقامات أبي الحارث ، وهي بحق تعتبر مفخرة من مفاخر الأدب العربي الزنجباري . وقد اشتملت على خمس مقامات هي : المقامة السنجارية ، المقامة الصحارية ، المقامة العمانية ، المقامة المكية ، والمقامة النادية " (١٤) وقال أيضاً واصفاً المقامة العمانية : " إن هذه

(١٤) مجلة نزوى ، مجلة فصلية ثقافية ، العدد (٢٤) أكتوبر ٢٠٠٠م / رجب ١٤٢١ هـ .

المقامة وغيرها من المقامات ، بما احتوت من معان جزلة وحكم بليغة وطرف مليحة وشعر رصين ، لهي جديرة بالإعجاب "(١٥).

وقد طبعت هذه المقامات في القاهرة لأول مرة في دار الكتاب عام ١٩١٤م ، ثم طبعت بالمطبعة الرحمانية في مصر عام ١٩٣٢م ، بعد ذلك طبعت بمطبعة السعادة في مصر عام ١٩٥٠م ، والطبعة الأخيرة قامت وزارة التراث والثقافة بطباعتها وذلك في عام ١٩٨٠م .

٢- رحلة أبي الحارث : وهي رحلة قام بها الشيخ محمد بن علي البرواني إلى مصر وبلاد الشام ابتداءً من مسقط رأسه في زنجبار ، زار فيها العديد من المدن كالقدس والقاهرة وبيروت ودمشق والخليل ، وأثناء الرحلة مر بعدن من أرض اليمن وجيبوتي .

(١٥) دراسات عن العرب والإسلام في شرق إفريقيا ، تأليف السيد حامد بن أحمد مشهور الحداد ، دار المنهاج - الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .

يقول الشيخ برهان بن محمد مكل القمري في وصف
هذه الرحلة :

بشر لرحلتك السنية قد علا وجه البلاد فصار يغبطه الملا
ألفتها حفظاً لما شاهدته منذ الذهاب إلى الإياب مفصلاً

وقد طبعت هذه الرحلة في مطبعة النجاح في زنجبار سنة
١٣٣٣هـ / ١٩١٥ م.

٣- ديوان شعري ، فقد أبان الانقلاب الدموي في زنجبار
عام ١٩٦٤ م .

٤- قصائد متفرقة ، منها ما أمد به المشائخ إلينا في عُمان
وحضرموت.

ومن ضمنها هذه القصيدة التي نظمها الشيخ محمد بن
علي البرواني في السلطان خليفة بن حارب البوسعيدي
بمناسبة اليوبيل الفضي :

خفقت بعرشك راية الإحسان فشذى بمدحك سائر الثقلان
وصفات مجدك أشرفت بين الورى كالشهب أو فلق الصباح الثاني
ورفعت أبنية المكارم حيث لا يبني بناءك للمكارم باني
فاهناً بعمرٍ جللته مآثرٌ برداء مفخرة رفيع الشأنِ
ثم الصلاة على النبي وآله ما دامت الأفلاك في الدوران (١٦)

مشائخه :

لقد تلقى الشيخ محمد بن علي البرواني علومه على
أيدي علماء زنجبار الذين عرفوا بالعلم والتقوى والأدب ،
واخذ منهم كافة العلوم الدينية والشرعية على اختلاف
مذاهبهم الفقهية ، فإليهم يعود الفضل بعد الله سبحانه
وتعالى .

(١٦) حصلنا على هذه القصيدة من الشيخ حمد بن سالم بن محمد الرواحي .

أولاً : العلامة القاضي الشيخ عبدالرحيم بن محمود بن أحمد بن محمود الوشيلي القمري (ت ١٣٥٥هـ) .

أحد كبار العلماء الشافعية ، تلقى علومه من السيد عبد الرحمن بن أحمد جمل الليل (ت ١٣١٥هـ) والشيخ عبد العزيز بن عبد الغني الأموي (ت ١٣١٤هـ) والشيخ عبد الله بن وزير (ت ١٣٢٢هـ) والشيخ محمد بن أحمد المروني (ت ١٣٠٧هـ) ، ولي القضاء في عهد السلطان علي بن حمود عام ١٣٢٤ هـ .

يقول الشيخ برهان بن محمد مكلا صاحب كتاب الألفية الواضحة الملقبة بالجواهر المنظمة وهي عبارة عن ألف بيت في النحو والصرف ومعاني الحروف في مستهل هذا الكتاب عن هذه المنظومة :

"... وهي وإن كانت محتوية على ما يستطاب من الفوائد فذلك من فضل أستاذي العلامة القاضي عبد الرحيم بن

محمود الوشيلي القمري متعني الله بحياته لأنه هو الذي اعتنى بتعليمي منذ صغري ، وإن وجد فيها ما لا يستحسن أو ما يعد غلطاً فهو من سوء فهمي والله الكمال" (١٧) ، وقد تتلمذ الشيخ محمد بن علي البرواني والشيخ برهان بن محمد والقاضي الشيخ علي بن محمد باقشمر العباسي على يد الشيخ عبدالرحيم في مسجد كنيوزي الذي بناه الشيخ عبدالرحمن بن أحمد الأفغاني.

ثانياً : العلامة القاضي الشيخ سيف بن ناصر بن سليمان بن علي الخروصي (ت ١٣٤١هـ) .

من أكابر الفقهاء والأدباء ، يعود أصوله لقرية ستال من وادي بني خروص ، و تتلمذ فيها على علماء زمانه من أمثال الشيخ يحيى بن خلفان الخروصي (ت ١٣٢٢هـ) ، والشيخ خميس بن جاعد بن خميس الخروصي

(١٧) اللفية الواضحة الملقبة بالجواهر المنظمة ، الشيخ برهان بن محمد مكل القمري انظر ص ٢ .

(ت ١٣٠٧هـ) ، والشيخ سالم بن خميس بن خلفان
الخروصي (ق ١٣ هـ) ، والشيخ محمد بن ناصر بن عبد الله
الخروصي (ق ١٤ هـ) ، والشيخ أحمد بن سعيد بن خلفان
الخليلي (ت ١٣٢٤هـ) ، ثم هاجر إلى زنجبار واستقر بها ،
ولي القضاء في عهد السلطان برغش بن سعيد البوسعيدي
الى عهد السلطان حمود بن محمد البوسعيدي .

لازم الشيخ محمد بن علي البرواني هذا الشيخ الجليل
فترة طويلة كما درس عليه الشيخ عبدالعزيز بن محمد
الرواحي (ت ١٣٦٢هـ) وكاتب الحضرة السلطانية الشيخ
سالم بن محمد الرواحي (ت ١٣٦٦هـ) والشيخ سليمان بن
محمد العلوي (ت ١٣٩٠ هـ) والقاضي الشيخ سعيد بن
ناصر الغيثي (ت ١٣٦١هـ) والشيخ علي بن خميس بن
راشد القصاب (ق ١٤) والشيخ برهان بن محمد مكلّا
(ت ١٣٦٨هـ) .

يذكر الشيخ سعيد بن ناصر الغيثي أبا الحارث في كتابه
إيضاح التوحيد: "وهو ممن أخذ العلم عن شيخنا سيف ، وله
فيه ثناء جميل وشهادة لنيل العلم سمعته غير مرة" (١٨) ،
وقد أرخ الشيخ محمد بن علي البرواني كتاب شيخه سيف
بن ناصر الخروصي " الإرشاد في شرح مهمات الاعتقاد" (١٩)
فقال :

حلية العلم سيمة الأجداد	فهو عين الكمال والإمداد
أورد الفكر في المسالك تبصر	مظهر العلم في خيار العباد
نسبة العلم إن تجلت بعبد	أكسبته بصائر النقاد
وتجلت له من الحق شمس	بسماء التوفيق والإرشاد
برزت في مظاهر الحق منه	كلمات دلت على الانفراد
واستقامت لنصها بينات	نيرات الصوى مع الإسناد
فأزاحت بنورها اذ تبتد	داجيات الشكوك والإلحاد

(١٨) إيضاح التوحيد بنور التوحيد الجزء الأول ص ٢٠٨
(١٩) الإرشاد في شرح مهمات الاعتقاد ، تأليف الشيخ سيف بن ناصر الخروصي ،
الطبعة الأولى ١٩٩٩ م ، انظر ص ١٤ و ص ١٥ .

واستتبت له الحقائق علماً
كالإمام ابن ناصر إذ أتاناً
جامع الكل في الحقيقة كنز
فعلى الكل فهو آية فضل
يا جميل الصفات يا مفرد الع
أنت بحر العلوم في كل فن
ما لك اليوم في علومك ند
لك مدحي وقد حلى ولهذا
يا لبشرى الموحدين بسفر
يبهج العارفين كشفاً ونوراً
عام تأليفه أتى ضمن بيت
قل وعلم الكلام علم عزيز

في مقام اليقين والاعتقاد
بكتاب كالجواهر الوقاد
من علوم ما إن له من نفاذ
واهتداء إلى سبيل الرشاد
صر كمالاً وواحد الآحاد
وعمداد التقى وركن السداد
أو مثيل قد بدا لنا في البلاد
عم شعري حلاوة الإنشاد
نسف الجاحدين نسف الرماد
كابتهاج الدنيا بصوب العهد
يتجلى عليك في الأعداد
قد حواه مهمة الاعتقاد

ثالثاً : العلامة الأديب الشيخ عبدالله بن محمد بن سالم بن أحمد بن علي بن عبدالله بن عمر باكثير الكندي (ت ١٣٤٣هـ).

عرف الشيخ عبد الله بالاستقامة والزهد والسيرة الصالحة ، توفي عنه والده وهو في سن الخامسة فنشأ طفولته في حضانة والدته ابنة عبد الله بن عدي بن عبد الله البروانية والتي يكون عمها الشيخ محمد بن عدي صاحب المسجد الحديث في حارة الباغ ، درس الشيخ عبد الله على أيدي الكثير من العلماء في ديار الحجاز وحضرموت ولامو مسقط رأسه منهم العلامة السيد حسين بن محمد بن حسين الحبشي والعلامة الشيخ محمد بن سعيد بابصيل والعلامة الشيخ عمر بن أبي بكر باجنيد والعلامة السيد عبد الرحمن بن محمد السقاف والعلامة السيد احمد بن حسن العطاس والعلامة السيد أبوبكر بن عبد الرحمن الحسيني والعلامة السيد صالح بن علوي جمل الليل والشيخ محمد بن مسلم قاضي لامو ،

ثم لازم العلامة الحبيب أحمد بن أبي بكر بن سميط لمدة ٣٤ عاماً ، فأصبح مرشداً من المرشدين .

وقد برع في كافة العلوم الدينية وكان يُدرس بالبداية في مسجد جوفو ما بين المغرب والعشاء وأيضا في شامبته في فووني إلى أن انشأ مدرسته في أوكاتاني من أرض زنجبار وتلمذ على يديه العديد ، منهم - لا على سبيل الحصر -

الفقيه العلامة الشيخ محسن بن علي بن عيسى البرواني (ت ١٣٧٢ هـ) (٢٠) ، والعلامة القاضي السيد عمر بن أحمد بن سميط (ت ١٣٩٦ هـ) وابنه الشيخ أبوبكر بن عبد الله (ت ١٣٦٢ هـ) ، والشيخ سالم بن سعيد بن سيف الشهيبي (٢١) (ت ١٢٤٩ هـ) ، والعلامة الشيخ الأمين بن

(٢٠) خبر وفاة الشيخ محسن بن علي في جريدة النهضة العدد ٦٥ ، ٤ ، و ١١ جمادى الثانية ١٣٧٢ هـ تحت عنوان مصاب جلل : "... حيث شيع جثمانه خلق كثير لم يشهد مثله من قريب لما للفقيد من مكانة سامية بين القوم ، والشيخ محسن فقيه وعالم من علماء أهل السنة بزنجبار تغمد الله بواسع رحمته والهـم ذويه الصبر والسلوان وإنا لله وإنا إليه راجعون..." انظر ص ١ .

(٢١) اشتهر هذا الشيخ بعلم الميراث وله درس في هذا العلم كل خميس في مدرسة الشيخ عبدالله باكثير في أوكاتاني .

علي المزروعى والشيخ سليمان بن علي المزروعى
(ت ١٣٥٥ هـ) والشيخ محمد بن عبد الرحمن المخزومى
(ت ١٣٦٥ هـ) والسيد احمد بدوى بن صالح جمل الليل
(ت ١٣٥٨ هـ) والشيخ عبد الله بن محمد الخطيب
(ت ١٣٧٤ هـ) والشيخ جابر بن صالح الفارسى
(ت ١٣٦٨ هـ) .

توفي الشيخ عبد الله باكثر في مدينة زنجبار ليلة الثلاثاء
١٤ من شهر شعبان عام ١٣٤٣ من الهجرة ، وقد رثى أبو
الحارث مشائخه الشيخ عبد الله باكثر والحبيب أحمد بن
أبي بكر بن سميط في قصيدة مطلعها :

ماذا تريد طوارق الحدثان بالعلم والإسلام والإيمان
إلى أن قال :

يحكى مصابك والمصائب جمه ما قد دهى الإسلام في شعبان
أعزز بعبد الله إن مصابه أوهى قوى الأرواح والأبدان

قطب من الأقطاب شمس هداية متقدسٌ في السر والإعلان
أبلغ أبا بكر بن عبد الله والـ حامي الحمى عمر فتى الفتیان
فلئن يك البحرين طوع إرادة فهما إلى الرضوان يلتقيان
فلأتما خلف لأكرم حائز للفضل والإجلال والإحسان^(٢٢)

ورثاه أيضاً العلامة الشيخ محمد بن أحمد باكثر في

قصيدة مطلعها :

لسان الدمع ينطقها الحمام ومسلوب الأجنة مستهام
فلا أقوى على صبر وإنني أسير جوى على الصبر السلام
أتى نبأ وحدث بالذي لا يسروني الحشا منه الضرام
يئن عليه علم واعتبار تئن عليه أوصاف جسام
فلا تسأل عن الحزن الذي قد جرى ما هذه النوب العظام
ألا ما حال بندر زنجبار وقد أودى بها الشيخ الهمام
حليف العلم والعمل المفدى بكل الخير كان له انتظام

(٢٢) الابتهاج في بيان اصطلاح المنهاج ، تأليف العلامة أحمد بن أبي بكر بن سميط ،
الطبعة الثانية ١٩٦١ ، أمدني بها السيد عبدالقادر بن سالم بن ابوبكر بن شهاب
الدين ، انظر ص ٤٦ ص ٤٨ . من ترجمة الشيخ عبد الله بن محمد باكثر .

رابعاً: العلامة الفقيه الحبيب شهاب الدين أحمد بن أبي بكر
بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن زين بن
سميط. (ت ١٣٤٣هـ)

المرشد الشهير من كبار الأجلاء العارفين يعود أصوله
لحضر موت، ولد في جزر القمر ونشأ على كنف والده
الكريم، درس على يد مشايخه العديد من العلوم كالتفسير
والحديث والفقه والمنطق والفلك والميقات، وفي عهد
السلطان برغش بن سعيد ولي القضاء على زنجبار وذلك
عام ١٣٠٠ من الهجرة، له العديد من المؤلفات منها (منهل
الوراد من فيض الإمداد) و(تحفة اللبيب) و(الكوكب
الزاهر) و(منهج الفضائل ومعرج الأفاضل) و(حاشية على
فتح الجواد) و(المطالب السنية).

قد نظم العلامة مفتي الديار الحضرية عبد الرحمن بن
عبيد الله السقاف قصيدة لاستقبال الحبيب أحمد في رحلته
الأخيرة إلى حضر موت، وذلك في عام ١٣٢٥هـ من ضمنها:

تحلّت به الدنيا ابتهاجا وجادها من الأنس مُزن دائم السكب هطال
وألبس وجه الأرض أثوابَ سندس من العشب فهي الآن تزهو وتختال (٢٣)

ومن المهتئين ايضاً لهذا القدوم الشيخ محمد بن محمد
باكثير في قصيدة مطلعها :

نغر الزمان بيمن عودك أظهرها بيض الضواحك بالمسرة أنورا
ومن ضمنها :

يا مرحبا بالمفرد العلم الذي شهدت له في الفضل آساد الشرى
بحر على التحقيق إلا أنه عذب المذاق به يفوق الأبحرا
من معشر غر كرام في العلى صاروا لغايات المكارم مصدرا

وقد جارى الشيخ سليمان بن ناصر اللمكي هذه
القصيدة بقوله :

وليسق عهد الجود منك معاهدا فلقد سقى العباس قبلك معشرا
ردي شبام عليّ صاحبي الذي أخذ النور حتى حُرمت به الكرى

(٢٣) الابتهاج في بيان اصطلاح المنهاج ، ترجمة السيد أحمد بن أبي بكر بن سميط
انظر ص ٣٦

فلقد جرى من أدمعي ما قد كفى ولقد كفى من بعده من قد جرى (٢٤)

بعد أن أمضى العلامة الحبيب أحمد بن أبي بكر نصف
عام لهذه الزيارة عاد إلى زنجبار، وقد نظم تلميذه الشيخ
محمد بن علي البرواني قصيدة لهذه المناسبة وفي ذلك يقول:

وَعَدَا بَعُودُكَ عَوْدُ عَيْشِي أَخْضُرَا	إِفْتَرَّغَرُ الدَّهْرُ مِنْكَ وَأَسْفُرَا
مَلَأَ الْبَسِيطَةَ لِلْمَبْرَةِ عَسْكَرَا	تَالَلَهُ مَا أَحْلَى قَدُومَكَ إِنَّهُ
مَنْ نَشَرَهَا بِالْبَشْرِ مِسْكَاً أَذْفُرَا	وَعَدَتْ بِهِ الْأَرْجَاءُ تَنْشُرُ مَا انْطَوَى
فِي صَبْحِهَا ذَاكَ الْجَبِينِ الْأَزْهَرَا	لِلَّهِ آيَةٌ لَيْلَةً أَبَدَتْ لَنَا
فَانْجَابَ مِنْهُ كُلُّ أَقْتَمٍ أَغْبُرَا	مِتْلَالُئْنَا بِسَنَا النُّبُوَّةِ وَالتُّقَى
إِنِّي بِأَحْمَدٍ لَمْ أَزَلْ مُسْتَهْتَرَا	يَا مَنْ تَوَلَّعَ بِالْكَرَامِ صَبَابَةً
بِاللُّوْذَعِيِّ الْأَلْمَعِيِّ غَضَنْفُرَا	أَعْنِي الْإِمَامَ الْعَالِمَ الْفَطْنَ الْأَدِيدَ
فِي الْفَضْلِ قَدْ أَعْلَاهُ لَنْ يَتَأَخَّرَا	مَوْلَى كِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ مَقْدَمًا
بَحْرًا مِنَ الْآدَابِ يَقْذِفُ جَوْهَرَا	شَهْمٌ إِذَا سَرَدَ الْخُطَابَ وَجَدْتَهُ

(٢٤) صحافتنا الغمانيّة.. في ذكرها المنيّة ، مختارات من صحافتنا الغمانيّة، للشيخ سلطان بن مبارك الشيباني .

شهم إذا ما رمت عد صفاته
شهم إذا ما قمت أنشد مادحاً
من معشر كرموا وطاب نجارهم
بصفاتهم أي الكتاب مخبر
يا من تفرّد في حميد صفاته
شيّد ركن الدين حتى إنه
أظهرت فينا معارفاً حتى اختفى
لم يبق في العلياء شأو منافس
بك قد صفا الدهر الملوّم وأشرق
فاسلم ودّم للمجد دهرًا سيدي
ما رنحت بالسجع أغصان النقا

ألفت أدنى صفاته لن يحصرا
في مجده فكأنني أمدح حيدرا
بالمصطفى شمس الهداية في الوري
حسب إذا كان الكتاب مخبراً
يا ابن الكرام الطيين العنصر
لولا جنابك كاد أن يتحدرا
ليل الجهالة والعمى وتسترا
إلا بلغت مباءة أسمى الذرا
أيامه وزهت وفاحت عنبرا
لا زلت في حلّ الهناء مدثرا
ورق وما لاح الصّباح وأسفرا^(٢٥)

(٢٥) معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

✽ العلاقة العلمية والأدبية والاجتماعية بين الشيخ محمد بن علي البرواني ورجال زمانه:

لقد اتصل أبو الحارث بالكثير من العلماء والأدباء
والوجهاء و العامة من أهل زنجبار وغيرها من الأقطار ،
ومن بينهم :

١ - العلامة القاضي الشيخ أبو مسلم ناصر بن سالم بن
عديم البهلاني الرواحي (ت ١٣٣٩هـ)

يعتبر العلامة أبو مسلم شاعر أهل زمانه وأعلمهم ،
له مؤلفات كثيرة في النثر والشعر كنثر الجواهر في علم
الشرع الأزهر والنشأة الحمديدية وغيرها ، تولى القضاء في
زمن السلطان حمد بن ثويني البوسعيدي ، وكان رئيس
تحرير أول صحيفة عربية في زنجبار تدعى النجاح .

وبين أبو مسلم وأبو الحارث صداقة وثيقة ، والكثير من

القصائد المتبادلة ، من بينها هذه المساجلة التي شارك بها عدد من الأدباء ، نقلاً من ديوان الشيخ عبد الرحمن بن ناصر الريامي : " أيام إقامتي بالجزيرة الخضراء في سفري الأول عرض علي الشيخ سلطان بن محمد الإسماعيلي الساكن الطائف من أعمال ويته من الجزيرة الخضراء مباسطة أشياخ الأدب .. ومن أين للضالع أن يبلغ شأو الضليع وها هي مباسطتهم " (٢٦) :

أنشد الشيخ محمد بن علي بن خميس البرواني :

ما حيلة المرء إن زاد الغرام به ومن يحب بحب الغير مشغول؟
إن رام تركاً فهذا لا سبيل له أو رام صبراً فعقد الصبر محلول

فقال الشيخ أبو وسيم خميس بن سليم الأزكاني مجيباً

على مذهبه الذي ذهب إليه :

يهوى سواك وتهواه فهل سفه من ذا أشد؟ وبعض الرأي تضليل

(٢٦) مخطوط الشيخ عبد الرحمن بن ناصر الريامي ، مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيد.

العزم والحزم سيفاً كل نازلة كل مجديهما لا شك مغلول
نزه هواك وأخلصه لمخلصه إن النزاهة فوق الرأس إكليل
وأجابه أبو مسلم :

خل الصبابة تسري في خليقته والحب من سره لطف وتذليل
لعل سكرته في الحب تجذبه إلى وصالك يوماً وهو مذهول
واصبر عليه وخل الحب ينحله جرحاً بجرح ومافي الحب تحويل

فجاراهم الشيخ عبد الرحمن بن ناصر الريمي في

أبيات مطلعها :

من كان عبداً لمن يهوى فليس له في مذهب الحب تخير وتبديل
إن كان قلبك لا تملكه كيف ترى بقلب حب بغير عنك مذهول
إن كنت تعشقه حقاً فمت كلفاً موله القلب في معناه مشغول
فاصبر بلا ضجر في حال جفوته عسى يلين وعقبى الصبر تسهيل
من أين تملك قلباً فيه مالكة ما كان رأيك بعض الرأي تضليل

وأجابه شيخ البيان محمد بن شيخان السالمي :

يستنجد المقلّة الفرحى ليسعده	منادم في زوايا الخد مطلول
ويوقد الوجد ناراً في جوانحه	يصلى لظاها حشى بالحب متبول
وتلك شدة أمر إثرها فرحٌ	ومنتهى الحزن بالأفراح موصول
وان ينل قبل ما يرجو منيته	فكل ما قدر الرحمن مفعول
يا حسبه شرفاً من أن يقال فتىً	بمعرك الحب أمسى وهو مقتول
لاخير في حب مشغول بغيرك ، ذا	لاه ، وأنت له في الأسر مكبول
وأعذب الحب أن يلقي حبيبك ما	تلقاه منه ، وهذا الحب مقبول

٢- العلامة السيد عبدالرحمن بن عبيد الله السقاف مفتي

الديار الحضرية

فقيه وأديب ومؤرخ ، له مؤلفات عديدة من بينها كتاب
العود الهندي في نقد ديوان الكندي وكتاب بلابل التغريد في
علم التجريد وكتاب إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت .
اتصل أبو الحارث به وكانت بينهم مراسلات نذكر منها

ما خطه العلامة السقاف إليه : " فقد ورد في كتابك المحرر
غرة ربيع الثاني من هذا العام ووصلني قبله المقامة فطردت
بها عيني ولقيت ما يكشف ريني ويهز بها نفسي ويعيد
أنسي ويطرق سمعي ويسيل دمعي إلى أن قال فأنا قاضي ..
لها بفضل وشهد لها بنقل والعلم لا يحصر بزمان ولا يختص
بشام ولا ين (٢٧).

وقرّظ العلامة السقاف مقامات أبي الحارث بقصيدة :

كلامٌ كله حِكمٌ وظرفٌ	يفوح من العروبة فيه عُرفٌ
شَفِيَتْ الغِلُّ منه بنهل رشفٍ	يؤمِّلُ بعده ملٌ وغُرفٌ
به الأدبُ ازدهى واشتدَّ رُكناً	ومن بُنيانه قد مالَ حرفٌ
يُسْتَفُّ منه بالعِقيانِ سمعٌ	ويرتَعُ في رياضٍ منه طرفٌ
لِعَهْدٍ صرُحَتْ فيه المعالي	وأرهقها من الأيام صَرفٌ
فيوشِكُ أن يكفُّ لها دُسوماً	يطولُ لها من الأرزاءِ دَرْفٌ (٢٨)

(٢٧) مخطوط شذى الازهار من مجالس الحبيب سالم بن حفيظ في زنجبار، مكتبة
العلامة الحبيب علي المشهور بن محمد بن حفيظ ، تريم حضرموت.

(٢٨) من مقامات أبي الحارث ، الشيخ محمد بن علي البروانسي ص ١٣٢ ، طبعة وزارة
التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ١٩٨٠ م.

٣- النسابة الشيخ عيسى بن علي بن عيسى البرواني

نسابة معروف له مذكرات في تاريخ القبيلة ، يعتبر الشيخ عيسى بن علي مرجعية للتاريخ والنسب في ذلك الزمن وقد استفاد من معلوماته كل من الشيخ سعيد بن علي المغيري في جهنته التاريخية والشيخ عبدالله بن صالح الفارسي في كتابه البوسعيديون حكام زنجبار.

٤- الشيخ الأديب برهان بن محمد مكل القمري

(ت ١٣٧٢ هـ)

أحد كبار الأدباء في زنجبار، نابغ في علوم اللغة العربية ، تلقى علومه على أيدي كبار العلماء من أمثال الشيخ عبد الرحيم الوشيلي والشيخ سيف بن ناصر الخروصي والشيخ أبو مسلم ناصر بن سالم الرواحي والسيد أحمد بن أبي بكر بن سميط.

يقول الشيخ سعيد بن علي المغيري : "ومن خدم في هذه الحكومة ، في أيام السيد علي بن حمود إلى عهد السيد الحالي خليفة بن حارب الأستاذ الفاضل الشيخ برهان بن محمد مكلّا ، وقد توظف في حكومة زنجبار منذ شهر نوفمبر ١٩٠٨م الى عام ١٩٣٩م ، وهو ممن يستحق أن نذكره في أعلام علماء زنجبار ، لما حازه من الفضائل ، فقد نبغ في العلوم العربية حتى لقب بـسيويّه زنجبار ، وله كتب في النحو والصرف والبيان ..."(٢٩).

ارتبط أبو الحارث بالشيخ برهان منذ صغره في درس شيخهم العلامة القاضي عبدالرحيم الوشيلي وشيخهم العلامة القاضي سيف بن ناصر الخروصي .

(٢٩) جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار ، تأليف الشيخ سعيد بن علي المغيري ، الطبعة الرابعة ، ٢٠٠١م ، انظر ص ٥٣٣

٥ - العلامة القاضي السيد عمر بن أحمد بن أبي
بكر بن سميّط

من كبار علماء زنجبار أخذ علمه على يد والده والشيخ
عبد الله بن محمد با كثير ، له العديد من المؤلفات من ضمنها
هداية الإخوان في شرح عقيدة الإيمان والنفحة الشذية ، ولي
القضاء في عهد السلطان خليفة بن حارب البوسعيدي .

للشيخ محمد بن علي البرواني قصيدة في مدح هذا
السيد وآل البيت الكرام مطلعها :

معاهد ربع باللوى هجن أشجاني	ولم يبق منها غير موقف ركبان
بها لعبت هوج الرياح وقد عفت	رسوم لها كانت مراتع غزلان
وأصبحن بعد العهد قفراً سباسباً	وأبدلن بعد الأئس حرقه أحزان
ومن ضمنها :	

من القوم لا يستنزل الضيم جارهم	لهم شيم نمت على الند والبان
فهم سادة شم العرانيين كمل	كرام نجار أهل عرف وعرفان

مساميح للعافي مصاييح للورى إذا ما ادلهم الدهر يوما بطغيان
نمتهم إلى العلياء ذروة هاشم محبتهم فرض على كل إنسان

ولما استمع الحبيب سالم بن حفيظ على هذه القصيدة

أثنا على الشيخ محمد بن علي ودعا له (٣٠)

وللسيد القاضي عمر بن أحمد بن سميط قصيدة في

مدح الشيخ محمد بن علي البرواني عنوانها السكرية الحارثية

في مدح ابي الحارث البرواني وهي :

قالت وقد حاورتها فيما جرى	يوم النوى هل غير دمع قد جرى
ووصفت أشواقي فقالت هل سوى	سهر وبالشوق الفؤاد تفترا
فسألت عن حق الهوى وعن الذي	ترضاه قالت أن أموت وأقبرا
فوهبتها روحي فقالت وهي في	إعراضها ضع ما وهبت على الثرى
فسألتها من بعد روح المرء هل	في الحب من شيء يباع ويشترى
فتبسمت من بعد حين ثم قا	لت حار في أمر الهوى من لا درى
لومت في حبي لما أديت من	فرض الهوى شيئا ومت مقصرا

(٣٠) مخطوط شذى الازهار من مجالس الحبيب سالم بن حفيظ في زنجبار .

ود الحسان وحبهن القهقرا
خلا واختبر الرجال وانظرا
وعلى الجواري المنشئات الأبحرا
دات الأنعام ولم أزل مستخبرا
سار محمد بن علي قدر في الوري
افواه من وصفوه مسكا اذفرا
حمداً ويحتاز الثنا والمفخرا
حتى غدا فيها يجاري الشنفرا
يده لواء الجيش والفصحى ورا
ورأيتها حمدت مواصلة السرى
وعلى القوافي والعروض تأمرا
ونظمت لي مدحا يفوق الجوهر
للنظم افكاري لأمر قد طرا
غدا وما احرى بها أن تشكرا
ها يحسب القاري تحسناً سكرًا (٣١)

فقرعت سني نادما ورجعت عن
وطفقت اجتاب البلاد لاصطفي
فقطعت فوق اليعملات مهامها
ودخلت اندية الكرام وزرت سا
حتى لقيت وقد حللت بزنجب
فسألت عن اوصافه فتأرجت
ندب قصارى همه أن يقتني
بشوارد الاداب اولع يافعا
واذا سرى جيش الفصاحة كان في
فتمسكت نفسي بذيل وداده
يا من له الاداب القت حبلها
قد طالما اهديت لي درر الثنا
واذا اردت بأن اكافي ما اهدت
واليوم هذا المستطاع مديحه
راقت ورقت كالزلال إذ قرا

(٣١) من الوثائق الخاصة التي بحوزة أحفاد الشيخ محمد بن علي البرواني .

٦ - العلامة الداعية السيد أحمد مشهور بن طه بن علي بن

عبد الله الحداد

من كبار علماء حضرموت ، عمل على نشر الدعوة الإسلامية في الشرق الإفريقي ودخل على يديه الكثير إلى الإسلام .

نظم السيد أحمد قصيدة معتذراً بها للشيخ محمد بن علي البرواني ، " وقد نشرت هذه القصيدة بالجريدة الرسمية في زنجبار بالقسم العربي يوم السبت ١٧ جمادى الثاني ١٣٥١ هـ الموافق ٩ أكتوبر ١٩٣٢ م ، بعد هذه المقدمة : (يسرُّنا أن نتحف قراءنا بهذه الخُود الأدبية التي زفها السيد أحمد بن طه الحداد إلى صديقه الشيخ محمد بن علي البرواني ، وكان سبب إنشائها هو أن الصديقين كانا قد حددا موعداً يلتقيان فيه للتنزه والتفكه بيوانع أدبيات العرب ، فأعترض السيد عارض لم يكن في الحسبان عاقه عن انجاز الوعد ، فلم ير إذاً وسيلة يتشفع بها عند صديقه إلا هذه

القصيدة التي بين فيها عذره الطارىء المقبول والقصيدة
طويلة اقتصرنا منها على نقل الابيات التي لها مساس
بالحادثة فقط) "(٣٢):

أينفعني من بعد خُلف كلامي	تحرّق أسنانٍ وعُض بنام
وشاغل وجد في الحشا وتحسر	تخور له وهي الشداد عظامي
وتنضيد أَعذار تسدد رمية	خلفاً بها طاشت عليّ سهامي
بلى إنّ عفواً عند داعية الجفا	من الصادق الموفى أعزُّ مرامي
أبي الحارث الشهم الذي العفو دأبه	وذلك أدنى فضله المتسامي
لقد رابني داع على وعد بيننا	لأحضره من محض عنصر حامي
عَشِيَّتَما وافيتُكم ووعدتُكم	وقلت سأقضي وقفةً بذمامي
فما راعني إلا سحوق محله	بأقصى مكان في الورى ومقام
وقد سبق السيف الملام وقادني	وصحبي معي حكم القضا بزمام
إلى هُوّة زرنا غيابات جُبّها	فبينني وبين المنظرين مرامي
فوالوعتي أنّى أفي لمحمد	بوعدي وقد جاءت جيوش ظلام
ووافى على الميعاد صادق وعده	فيا ناشداً يفديك رهن هيام

(٣٢) ترجمة الإمام الداعية أحمد مشهور بن طه الحداد ، تأليف السيد حامد بن أحمد ،
دار الفتح الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ ، انظر ص ٣٢

رهين فهل بشرى لحال غلام
من ابن علي واعتصام عصام
لطائفه الحسنى وقطر غمام
حفي على جذب الثرى بسجام
ودادٍ على لُطف وطيب كلام
فضيلته كفواً خيراً وئام
علينا فقد نالت قران همام
ترقت من العلياء فوق سنام
وسامانٍ إن يعلو امرؤ بوسام
إذا روقت جاماً متابع جام
سُمُوط معانٍ لم تنل بسوام
البيان وإدلاء بسلك نظام
أمتٍ من الأنساب بين رحام
سكوناً به يمتد بعض جمام
ويبذل عن وسع بحلب صرام
على حكمة يسدي وقول سلام

نجا من غياب الحب وهو بوعدة
وإني على فعلي لبالصفتح واثق
حميد السجايا من يذكرنا بالصبا
فما البرق إذ يفتّر عن رسل عارض
أبر وأسنى من تبسمه لذي
ولما تصدى للفضائل واجتبت
بذلنا لها منا الرِّفا لحقها
كريم نجار من أعظم أسرة
فيا لك من ندب له الحلم والوفا
وصافية الآداب منهل شربه
وكم قلد الآداب من غضّ دره
يحق له عقد الخناصر من أولي
ورابطة الآداب بين فحولها
ودونك نجوى من تُنازعُه الهوى
فيعرب عن شكر بعفوٍ كلامه
وينصر دعوى من يرى الشعر مذهبا

٧- العلامة القاضي الشيخ سعيد بن ناصر بن سعيد بن سليم بن ناصر بن حسين بن خميس بن جاعد الغيثي الحارثي (ت ١٣٦١ هـ).

من كبار العلماء ، "نشأ في مدرسة الشيخ راشد بن سليم بن سَالِم الغِيثِي (ت ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م) التي أقامها إلى جانب بيته بزنجبار، ودرَسَ على أيدي مُعَلِّمِهَا مبادئ العلوم، ثم تتلمذ على الشيخ سيف بن ناصر بن سليمان الخَرْوُصِي (ت ١٣٤١ هـ / ١٩٢٣ م)، والشيخ علي بن مُحمد بن علي المُنْذِرِي (ت ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م) ولازم الشيخين: عامر بن خميس بن مسعود المالكي (ت ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨ م) وعبد الله بن عامر بن مُهَيَّل العزري (ت ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م) أثناء إقامتهما بشرق إفريقيا، وحكى عنهما بعض أقوالهما في كتبه. "، "عُيِّنَ قاضيا بالجزيرة الخضراء وزنجبار لفترة طويلة، في زمن السلطان خليفة بن حَارِب بن ثُوَيْنِي

(١٣٢٩ - ١٣٨٠ هـ / ١٩١١ - ١٩٦٠ م). (٣٣)

إرتبط الشيخ سعيد بن ناصر الغيثي بأبي الحارث ، ومما ورد في ذلك إشارته إليه في كتاب إيضاح التوحيد بنور التوحيد قوله : " وأبو الحارث هذا ، هو : أوسع معاصريه علما ، وأرفعهم ذكرا ... " (٣٤).

٨ - الشيخ عبد الله بن حميد بن سيف السمرى (ق ١٤).

من وجهاء العرب ، كان ملازماً للقصر من صحبة السلطان خليفة بن حارب وكان أديباً يتعاطى الشعر. (٣٥)

(٣٣) الشيخ سعيد بن ناصر الغيثي .. حياته واثاره ، تأليف الشيخ سلطان بن مبارك الشيباني.

(٣٤) إيضاح التوحيد بنور التوحيد ، تأليف الشيخ سعيد بن ناصر الغيثي (ت ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ م) الطبعة الأولى ، الجزء الاول ص ٢٠٩

(٣٥) لقاء مع الشيخ عبدالله بن حمد بن سليمان الحارثي، يذكر انه من المقرئين للشيخ محمد بن علي البرواني.

٩ - أبناء الشيخ الجليل عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن محمد بن خميس الخروصي.

وهما المشائخ محمد وسعيد ، من وجهاء العرب ، كانوا من أقرب الناس إليه لأنهم قد تربوا في بيت واحد ، فكانوا كالأخوان لا فرق بينهم ، وقد تزوج الشيخ سعيد بن عبد الله الخروصي بابنة عم الشيخ علي بن خميس البرواني وهي سليمة بنت سعيد بن سالم البروانية التي عرفت بالكرم الشديد ، وصاهر ابنهم الدكتور سعود بن محمد بن عبد الله الخروصي أبو الحارث فتزوج ابنته الوالدة نائلة .

١٠ - أبناء الشيخ الجليل سيف بن سعيد بن ماجد بن سعيد بن قاسم المعمرى .

عرفوا بالوجاهة والسيرة الصالحة ، تربطهم علاقة قرى ونسب بأبي الحارث فوالدتهم هي ريا بنت حميد بن راشد البروانية ، وجدتهم أم والدهم هي السيدة الجليلة

فاطمة بنت سيف بن عدي بن عامر بن راشد البروانية التي
خلدت ذكرها في زنجبار بينائها مسجدين .

١١ - الشيخ مسعود بن علي بن محمد بن سالم بن ناصر
الريامي (ت ١٣٧٦هـ) (٣٦)

من أكابر العرب ، عرف برجاحة العقل والسخاء
الشديد حيث إنه كان ممن أنعم الله عليهم ، و الشيخ مسعود
أحد حاضري مجلس السلطان الدائم لما يتمتع به من
مكانة عالية بين أهالي زنجبار ، فقد كان "غوثاً للملهوف ،
وعوناً للمحتاج ، وسنداً لمن لا ظهير له" ، "خدم الأمة
والجمعية العربية لمدة ثلاثين عاماً تقريبا ، وكان خازناً لها لمدة
عشرين عاماً ، وأميناً لجمعية ميلاد الرسول عليه الصلاة
والسلام" (٣٧) .

(٣٦) للمزيد من المعلومات عن هذه الشخصية ، انظر لترجمته في كتاب
((زنجبار شخصيات وأحداث)) ، تأليف الشيخ ناصر بن عبدالله بن مسعود
الريامي.

(٣٧) ((زنجبار شخصيات وأحداث)) ص ٢٦١ و ص ٢٦٩

١٢ - الشيخ سالم بن محمد بن سالم بن سيف بن
عبد العزيز الرواحي (ت ١٣٦٦ هـ)

من وجهاء العرب ، تتلمذ على الشيخ يحيى بن
خلفان الخروصي والشيخ سيف بن ناصر الخروصي ، عمل
كاتباً ومستشاراً لسلطين زنجبار ، له دور بارز في خدمة
التراث وذلك عن طريق نسخه العديد من الكتب والمساهمة
في طباعتها.

وفاته :

انتقل إلى رحمة الله تعالى في ظهر يوم الثلاثاء التاسع
من شهر ذي القعدة عام ١٣٥٧ هـ بعد حياة حافلة بجلائل
الأعمال ، وقد دفن بالمقبرة الخاصة في فوجا وشيع جثمانه
خلق كثير.

ففي إحدى جرائد زنجبار ورد هذا الخبر تحت باب
مصاب أليم :

"ننعي بمزيد الأسى والحزن وفاة الشيخ العلامة محمد بن علي بن خميس البرواني الذي وفاه الأجل المحتوم يوم الثلاثاء ٩ من ذي القعدة عن عمر يناهز ثمانين عاما ، ولقد شيع جنازته إلى مقره الأخير جم غفير من الأمراء والأعيان والفقهاء ، وموظفو دواوين الحكومة وغيرهم من طوائف مختلفة الأجناس وكان الفقيه عالما وزعيما وقليل من أمثاله في عصرنا اليوم وله تأريخ مجيد ، نقدم تعازينا الحارة لأنجاله المشائخ هلال وعلي وأقاربه وأسرة المرحوم تغمده الله بواسع رحمته والهم ذويه الصبر والسلوان" (٣٨).

ويقول فضيلة الشيخ محمد الدهان في اجتماع جمعية نشر الثقافة الإسلامية بزنجبار : " لا أحب أن أتكلم فليس المجال مجال كلام ولعلكم تعرفون من نشاط الجمعيات التبشيرية والهيئات الإلحادية والخسارة الفادحة التي نكبت بها زنجبار في هذا العام بوفاة ثلاثة من علمائها الذين كان

(٣٨) امدتني بها الوالدة نائلة بنت محمد بن علي البروانية.

لهم أثر مشكور في خدمة الإسلام وهم المرحومون القاضي
الجليل الشيخ علي العباس والعلامة الكبير الشيخ محسن
البرواني واللغوي الأديب الشيخ محمد بن علي بن خميس
البرواني ما يغنيكم عن الكلام ويحتم عليكم البذل ويدعوكم
إلى العمل السريع الحازم إبقاء على دينكم وإحياء للغتكم
وحرصاً على كرامتكم وإثباتاً لشخصيتكم.." (٣٩)

رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ، آمين.

تم بحمد الله وعونه

أسأل الله التوفيق في هذا العمل

نبهان بن تغلب بن هلال بن محمد البرواني

رحلة أبي الحارث

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (غافر: ٨٢)

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله و صحبه .

السفر

كان سفري من زنجبار يوم الجمعة ٢٠ من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٣٢ هـ ، وبموافقة ١٧ لشهر ابريل سنة ١٩١٤ م ، على الباخرة الألمانية و اسمها (جتريد ورمين) . وقد أخذت الجواز إلى بورت سعيد (٤٠) . ففي الساعة الرابعة (٤١) من صباح ذلك اليوم استأجرنا قارباً لنقلنا

(٤٠) بورت port أي ميناء. وهي باللغة الإنجليزية. وبورت سعيد مدينة ساحلية معروفة، وتسمى الآن بورسعيد.

(٤١) التوقيت الذي يعتمده الكاتب هو التوقيت الغروبي المتبع حتى عهد قريب في عُمان . انظر : محمد المحروقي ، مغامر عماني في أدغال أفريقيا .

إليها(٤٢)، وبعد وصول الباخرة بساعة أقلعت ، وبينما هي
تمخر عباب اليمّ على ضفاف مدينة زنجبار؛ إذ لاحت مني
التفاته إلى تلك الديار التي ألفتها، ومنازل أحبائي وخلاني
الذين فارقتهم، فأحسست بألم الفراق . ولم تمض بضع من
الساعات حتى توارت عني أرضها :

وتلفتت عيني فمد بعدت

عني الطول تلفت القلب(٤٣)

ومما خفف عني ذلك الألم اشتياقي لرؤية الأقطار التي
أزمنت الرحيل إليها .

وما زالت الباخرة توالي سيرها حتى رست بنا الساعة
١١ مساءً في ميناء تانجا . وهو صعب المدخل ، تجتنب
النوتية(٤٤) الدخول والخروج منه بمراكبهم ليلاً . وقد اتخذته

(٤٢) أي إلى السفينة الألمانية المذكورة .

(٤٣) البيت للشاعر الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن الحسين . ووردت كلمة
"خفيت" مكان "بعدت"، و بكليهما يستقيم المعنى.

(٤٤) النوتية : جمع نوتي ، وهو ربان السفينة . قال صريع الغواني مسلم بن الوليد
يصف سفينة :

الحكومة الألمانية مرسى لسفن التجارة بعد دار السلام . وتمتد من هذه المدينة سكة حديدية إلى الداخل ، وفي أرضها يزرع مقدار عظيم من الكتّان الجيّد ، ويُصدّر إلى أوروبا .

وظلت الباخرة فيه إلى صباح يوم الأحد ريثما أتمت تفريغ البضائع وشحن الكتّان ، ثم مخرت بنا قاصدة ممباسة ، فوصلناها الساعة السابعة بعد الظهر. وهي أكبر عاصمة في الأفريقية الإنجليزية ، وامتازت بوجود سكة حديد فيها ، تمتد منها إلى أوغندا . وقد اتسعت جداً عما كانت أولاً ، وفيها عدة قصور حسنة على الطراز الحديث. وقد ألفت الباخرة مرساها في مينائها المسمّى (كليندي) . ولما تحققت أن الباخرة ستتربص في الميناء إلى صباح الاثنين ؛ أحبت النزول إلى البرّ لزيارة بعض أصحابنا هناك . فلما انتهيت إليه دخلت

تجافى بها الغوتّي حتّى كأنه يسير من الإشفاق في جبل وعر جاء في لسان العرب : ((نات الرجل نوتا تمايل ، وهو أيضاً في نيت . والنوتيّ الملاح . والجوهري ، والنوتيّ الملاحون في البحر ، وهو من كلام أهل الشام ، واحدهم نوتيّ ...)) . ويظهر أن النوتية والنوتاي جمع لمفرد واحد هو النوتي . والأولى أقرب إلى الاستخدام العامي .

الكمرك (٤٥)، وهناك ركبت على وتومبيل (متكار) (٤٦) إلى العاصمة ؛ لأنها تبعد عن هذا الميناء بنحو الساعة .

وبعد بضع دقائق وصلنا العاصمة ، وقابلت أصحابي هناك . جزاهم الله عني خيراً . و آثرت المبيت في تلك الليلة عندهم . وفي صبيحة الاثنين عدت إلى الباخرة . وفي الساعة الخامسة أقلت بنا ، فظلت تفري بنا أديم البحر ، ونحن لا نشاهد إلا الماء و القبة الزرقاء فوقه ، إلى صباح الجمعة .

وفي ذلك الصباح ظهرت لنا جبال حافرن (٤٧)، فلم نزل نسايرها سحابة يومنا . وهي متسلسلة ، إلا أنه يتخللها بعض الرمول . فكنت أقف ملياً على مقدم الباخرة أمتع النظر بمحاسنها الطبيعية ، و أستقبل الصبا منها . فسبحان الخالق المبدع .

(٤٥) الكمرك والجمرك أو الجمارك شيء واحد، كلمة معربة تعني نقاط الحدود الحكومية التي تفحص فيها الوثائق وتدفع الرسوم على الصادرات والواردات.

(٤٦) وتومبيل أي سيارة باللغة الفرنسية. ومتكار تعني السيارة أيضاً، باللهجة الدارجة العمانية القديمة. ولعلها من الكلمة الإنجليزية Automobile ، أضيف إليها ميم و تاء حتى تكون على وزن اسم الآلة مفعال.

(٤٧) سلسلة جبال في حضرموت.

وفي السبت ظهرت لنا من بُعد الباخرة الإنجليزية تجري على أثرنا ، وقد كانت راسية في ممباسة عند خروجنا منها ، وقد أقلعت منها بعد خروجنا بست ساعات . ولما أحسَّ ربان مركبنا بقربها أعطى الأوامر لزيادة جري الباخرة ، ولم تنزل تجيّد في سيرها و تلك تقترب منها حتى حاذتنا جنباً بجنب . و مرت تهوي هويّ الأجلد المنقضّ . و غادرتنا وراءها ، كأنها تبادر بسيرها نهياً مقسماً ، فدخلت ميناء عدن . و دخلنا على أثرها بساعة ، وقد خيم الغسق .

عدن

هي مدينة مشهورة من قديم الزمن ، وقد ذكرها كثير من شعراء الأوائل في شعرهم ؛ منهم عمر بن أبي ربيعة في قوله :

هيهات من أمة الوهَّاب منزلنا إذا حللنا بسيف البحر من عدن
وهي تبعد عن الساحل بساعة ، يفصل بينها جبل . ولم

يكن فيه طريق ، فقطع الجبل ، ومُهدتُ فيها المسالك ،
فصار لها طريق فيه ، يمتد من الساحل إليها . وقد زادت
أهميتها كثيراً بعد فتح القنال . فهي ذات تجارة واسعة . يبلغ
عدد سكانها الآن ٣٥ ألفاً . اشترتها إنجلترا سنة ١٨٣٩ م من
الدولة العليّة .

وتربصت الباخرة ريثما أتمت تفريغ البضائع ، فما تبَلَّج
نور الصباح حتى مخرت بنا ؛ وذلك صبيحة الأحد .
وما زال البحر صاحياً والهواء موفقاً .

وفي المساء تراءت قصور مخا ، وهي مدينة قديمة . ولم
تزل الباخرة توالي سيرها إلى صبيحة الأربعاء . وأصبحنا
ذلك اليوم والبحر قد هاج هائجاً ، وماج مائجاً ، فأصبحت
الباخرة ألعوبة الأمواج ، وكانت الريح تعصف من أمامها ؛
فترمي بموج يصدم الباخرة صدمات تنقلب لها على عظمها
تقلّب الغصن الرطيب . ودام الحال إلى ليلة الجمعة ، فهذا
روع العواصف ، وأتى الله بالفرج ، وأذهب اليأس والبأس ،

فلله درُّ القائل :

البحر مرُّ المذاق صعب لا جُعلتُ حاجتي إليه
أليس ماءً ونحن طين فما عسى صبرنا عليه (٤٨)
ففي فجر تلك الليلة أَلقت الباخرة مرساها في ميناء
السويس .

السويس

هي مدينة عظيمة ، واقعة على البحر الأحمر في مدخل
القنال بالقرب من أطلال مدينة قديمة تسمى بالقلزم ؛ التي
كانت فرضة مصر والشام . وقد ذكرها الشاعر في قوله :
علوية أمست و دون مزارها مضمار مصر وعابد والقلزم
وإلى هذه المدينة ينسب هذا البحر ، وهو المكان الذي
غرق فيه فرعون وجنوده . ويوجد بالسويس حوض عظيم

(٤٨) ابن رشيق القيرواني ، وقد ورد الشطر الأول للبيت الأول هكذا: "البحر صعب المرام مر .

لإصلاح السفن ، وأرصفت ترسو عليها السفن الكبيرة لشحن البضائع وإخراجها . ومدينة السويس تبعد من المرسى بنحو الساعة ، و يمتد بينهما خط حديدي . وتبعد عن القاهرة ١٣٥ كيلومتراً . وتصلها بالقاهرة والإسكندرية سكة حديدية . وهي الآن ذات أهمية عظيمة لوقوعها على رأس الخليج و طرف القنال .

و قد شُيِّد بها عدة أبنية جميلة ، و انتظمت شوارعها على الطراز الحديث . وبالقرب منها في آسيا يوجد وادي التيه ، الذي تاه فيه بنو إسرائيل حين خرج بهم موسى عليه السلام من مصر . و بالقرب من هذا الوادي توجد العيون المشهورة ، وهي عيون موسى عليه السلام المذكورة بقوله تعالى : ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ (٤٩) (البقرة / ٦٠) ومع أخذ الجواز إلى بورت سعيد أحببت النزول في هذه

(٤٩) الآية كاملة هكذا ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ﴾ (٦٠).

المدينة لأريح نفسي من معاناة البحر . فنزلت من الباخرة ،
وركبت في أحد القوارب ، وبعد وصولنا إلى البر دخلنا في
المحجر الصحي ، حيث يجري فيه الكشف الطبي ، وتبخير
الملابس الوسخة . و لم يكن عندنا من فضل الله ما يعوزنا
إلى ذلك . ثم دخلنا إلى قلم الباسبورات ، وقيدوا أسماءنا .
ثم قصدنا توأ إلى محطة السكة الحديدية ، فقطعنا التذاكر ،
وركبنا القطار ، وتحرك بنا في الساعة الثانية في صباح ذلك
اليوم ، وسار بنا يطوي السهول والبطاح . ووقف بنا القطار
في أثناء الطريق هنيهة على محطات الشلوفة وجنفه وفايد
وسراييوم ونفشه والإسماعيلية . وهنا ترحلنا ، و تربصنا
للقطار الآتي من بورت سعيد .

وبعد بضع دقائق وصل ، فركبنا فيه ، فسار بنا على
سهول منبسطة قد اكتست من النبات ثوباً سندسياً قشيباً
يرتاح إليه النظر . ووقف بنا القطار على جملة المحطات
منها ؛ بر حماد والزقازيق و مينا القمح و بنها و قليوب .

وفي الساعة السابعة دخلنا القاهرة التي هي عاصمة مصر . فوافق قدومنا في تلك الساعة سفر والدته الخديوي إلى الأستانة ، وقد أعدَّ لها قطار خصوصي . وقد زينت المحطة بأعلام الدول تشريفاً لها ، وتعظيماً لقدرها . وكان نزولنا بها بفندق يعرف الوكندة البرنسات ، بشارع كلوت بك في الأزبكية .

مصر

ثم قبل الشروع في ترجمة القاهرة ، وفي ذكر شيء من أحوالي ؛ ينبغي هنا أن أقدم كلاماً في أحوال مصر ، وتخطيطها على وجه الاختصار .

قيل سميت مصر بمصر بن مصرام بن حام عليه السلام . وهي مملكة قديمة واقعة في شمال القارة الأفريقية الشرقي . وتتكون من أراض زراعية . وهذه الأراضي تتركب من جزئين ، وهما الوجه القبلي والوجه البحري .

وأما الوجه القبلي فالمراد به الصعيد ، وهو من أصوان إلى مدينة القاهرة ، شكله تقريباً مستطيل من الأراضي الزراعية ، يحدها من جهة الغرب جبال ليبيا ، ومن جهة المشرق الجبال الغربية . ونهر النيل جار في وسط هذا المستطيل . ومن هذا المستطيل تتكون سبع مديريات ، وهي الحدود وقنا وجرجا والمنيا وبني سويف والجيزة . وهناك مديرية ثامنة وهي مديرية الفيوم ؛ ولكنها خارجة عن هذا المستطيل المذكور بجزء من الجبل الغربي محاذة لمديرية الجيزة .

وأما البحري وهو الجزء الأهم ، ويمتد من القاهرة إلى البحر الأبيض ، وشكله مثلث ؛ رأسه يوجد خلف مدينة القاهرة ، وقاعدته متجهة من الشرق إلى الغرب على شواطئ البحر الأبيض ، من ابتداء مدينة العريش إلى مريوط . ويتكون هذا المثلث من ست مديريات ، وهي قليوبية والشرقية والدقهلية والمنوفية والغربية والبحيرة . ولكل هذه المديريات بلاد و بندر .

وأما هواء مصر فمعتدل طيب ؛ إلا أنه في بعض الأحيان قد لا يحمد من ألف بلادنا ، وخصوصاً في الصيف ، لأنه قد تبلغ درجة الحرارة فيه حتى تصير الريح التي تهب في النهار سموماً ، إلا أنه يتعقبها ليلاً نسيمات الشمال فيترطب منها الجو .

ويبلغ عدد سكان مصر على حسب التعداد الأخير نحو (٩,٧٣٤,٤٠٥) نسمة ، الذكور منهم نحو (٤,٩٤٧,٨٥٠) ، والإناث (٤,٧٨٦,٥٥٥). وينقسم عدد السكان إلى حضريين وعربان وأنواع من تبعة الدولة العليّة وأجانب . وأما الجنس المصري الحاضر ؛ فهو قليل من القبط وأبناء الروم والأتراك والأكراد والفرس والسوريين وأبناء العرب الفاتحين وغيرهم . ولم يبق من الجنس الأصلي الخالص سوى قليل من الأقباط .

ويغد إلى مصر في فصل الشتاء كثير من السيّاح من أقطار أوروبا هرباً من بردها القارس . وأشهر مزارعاتها الصيفية :

القمح والشعير والذرة والأرز و الفول و العدس و الحمص
و الحلبة و الكتان و السمسم وقصب السكر و البصل و الحنّاء
و البطيخ و الشمام و الخيار و القطن ؛ و هو أهم
حاصلاتها ، و الخضروات على اختلاف أنواعها. و من
فواكهها : التمر و العنب و النارج و الليمون و اليوسف
أفندي و الخوخ و المشمش و السفرجل و الرمان و التين
و الموز ، و يوجد فيها الأمبا و هم يسمونه مانغو ، إلا أنه
قليل ، تبلغ الحبة إلى ٣ غروش صاغ (٥٠) ، عبارة عن نصف
ربية (٥١).

(٥٠) الغروش و القروش شيء واحد. و هي عملة معدنية تستعمل في مصر.
(٥١) الربية و الروبية ، هي العملة السائدة الاستعمال في شرقي أفريقيا. وهي عملة
هندية.

القاهرة

ويقال لها المحروسة ، وهي أعظم مدينة في الديار المصرية والقارة الأفريقية ، وهي عاصمة مصر . يبلغ عدد سكانها (٦٠٠) ألف نسمة ، بين وطنيين و أجانب . أسست هذه المدينة العظمى سنة ٣٥٩ هجرية ، بأمر من المعز لدين الله بن إسماعيل بن المنصور على يد كاتبه و وزيره القائد جوهر الصقلي . حيث قدم من المغرب للاستيلاء على بلاد مصر من طرف مولاه المعز .

وكان الموضع الذي بنيت فيه هذه المدينة رملة يمر بها الناس عند مسيرهم من الفسطاط إلى عين الشمس . ولم يكن بها بناء سوى بستان للإخشيد و دير للنصارى . و أما الآن فقد بلغت أوج مجدها في العمارة . فهي مدينة كبيرة واسعة الأرجاء ، حافلة الأسواق كثيرة المساجد ، خاصة بالخلق ، ذات شوارع فخمة ، أكثرها قائمة في وسط حدائق

غناء و جنائن فيحاء. وبها عدة جوامع شهيرة، وآثار أثرية،
و مشاهد مباركة، و حدائق ناضرة، ورياض زاهرة، تخرق
أكثر شوارعها المركبات الكهربائية (الترامواي) (٥٢). فتمتهدى
القول إنها من المدائن التي تملأ النفوس بهجة وحسناً، فلقد
أجاد سليم بك العنجوري الدمشقي (٥٣) في وصف
شوارعها، حيث قال :

تلك الشوارع عرضها أمتارا ستاً بستٍ تدهش الأبصارا (٥٤)
يجري الهواء بها رخاء مطلقاً يحو السقام و يذهب الأكدارا
تزدان بالأنوار فوق منائر فيعود ليل المدلجين نهارة

(٥٢) قطارات داخل المدينة، تستخدم حتى الآن.

(٥٣) سليم بن روفائيل بن جرجس عنجوري (١٨٥٦-١٩٣٢ م). أديب و شاعر
و عضو في المجمع العلمي العربي. مولده ووفاته بدمشق. له عدة أعمال شعرية
و نثرية؛ منها: كنز الناظم ومصباح الهائم وآية العصر وسحر هاروت.

(٥٤) الأصح أن يقول "عرضها أمتار".

شوارعها :

فمن أهم شوارعها شارع كامل باشا ، يحفّه من جانبيه أهم الفنادق ، وأعظمها والدكاكين ومواقع القهوة الأنيقة الحافلة ، فلا تزال ترى أمام هذه القهاوي كثيراً من الكراسي ، ولا تزال غاصة بالناس إلى ثلثي الليل . فإذا دخلت قهوة منها وجلست على كرسي ؛ جاءك الخادم بكوب من النحاس وفنجان وسكر ، وصبّ القهوة بمرأى منك . إلا أن قهوتهم لا يحسنها من ألف قهوة بلادنا . ومحلات القهوة والمطاعم في هذه المدينة لا تحصى كثرة ، فحيثما توجهت تجدها هناك . فإذا دخلت مطعماً فأول ما تجلس يأتيك الخادم بأدوات الأكل ؛ من فوطة وملعقة وسكين ، وغير ذلك . ثم بدفتر مكتوب فيه أسماء الطعام باللغتين العربية والفرنساوية ، فتختار ما تشاء . فإذا فرغت من الأكل أتاك الخادم ، وأنقذته قيمة ما أكلت . وأغلب ما

يبدأ في غذائهم الشورية ، ويختم بشيء من الحلو أو الفاكهة .
وفي الدكاكين ترى أحسن الملابس وأنفس الحلي
والتحف مما يستوقف المجتاز . وقد يستخدم بعض أصحاب
هذه الدكاكين إلى مائة نفر من العمال ، (وهم على درجة)
من اللطف و لين الجانب ما يدعو إلى حمل الشاري على
الإسراف في الشراء . و العجب أن كثيراً منهم يستخدمون
بناتاً حساناً من الافرنجيات في دكاكينهم . فإذا دخلت دكاناً
حرت بين أن تنظر إلى البائعة أو إلى البيّاعة .

ويتصل بالشارع المذكور الحديقة الأزيكية وميدان
إبراهيم باشا . ووسط هذا الميدان تمثاله و قد امتطى صهوة
جواد ، باسطاً ذراعه الأيمن ما سكا على سيف ، يشير به
بشهادة . ويشرف على هذا الميدان دار التمثيل ، المسمى
الأوبرا . وهو قصر فخيم ، وبنيان شامخ . و لا يفتح للتمثيل
إلا في فصل الشتاء . و للسرّج (٥٥) في هذا الشارع منظر فتان .

ويمتد هذا الشارع حتى يتصل بشارع عابدين . وينتهي هذا الأخير بميدان عابدين . و الميدان عبارة عن رجة فسيحة أمام قصر مستطيل فخيم ، يسمّى بسرايا عابدين . بناء الخديوي إسماعيل باشا . وهذا القصر يشغل مساحة عظيمة . وهو الآن معدّ لاستقبال الوفود المهنئين ، و غيرهم .

ومنها شارع المغربي . و هو يتديء من ميدان إبراهيم باشا إلى أن ينتهي بشارع سليمان باشا . تحفّه من جانبيه قصور شاهقة ، ومنازل رائقة ، خلعت عليها الأيام جمالها . ومنها شارع قصر النيل ، و هو ممتد على مسافة طويلة حتى ينتهي بقصر النيل . وهذا القصر يشغل مساحة عظيمة ، قائماً على ضفة النيل . و هو الآن معدّ لسكن العساكر .

ومنها شارع بولاق ، يتديء من شارع كامل باشا ، وينتهي بشارع أبي ليلي . وكلا الشارعين من جانبيهما قصور و دكاكين وقهاوي و متنزهات .

ومنها شارع كلوت بك . و هو يمتد من باب الحديد عند محطة سكة الحديد ، و ينتهي بميدان خازن دار . و ليس في هذا الشارع ما يلفت الأنظار ، إلا أنه مهم لكثرة دكاكينه . وتخرقه على طولله المركبة الكهربائية .

ومنها شارع موسكي . و هذا الشارع يتدىء من العتبة الخضراء ، و ينتهي بالشارع الجديد . و يحفُّه من جانبيه مخازن لجميع أنواع الثياب من الحرير و الشيت^(٥٦) . ولا تزال تراه غاصاً بالخلق ليلاً و نهاراً .

ومنها شارع محمد علي . و هو ممتد على خط مستقيم من العتبة الخضراء إلى مسجد الرفاعي ، بقرب القلعة . ويخترق وسطه المركبة الكهربائية . و يوجد في أثنائه الكتب خانه الخديوية ، بموضع يسمّى باب الخلق . و هي جامعة لأهم الكتب . و تحتوي على كتب كثيرة بخط اليد . و يقال إنها من أجمل كتب خانات الشرق . وجنبها دار الآثار

العربية . وهي متحف عظيم يحتوي على الآثار الرخامية والحجرية والنحاسية والخزفية من عهد محمد علي باشا ، وكثير من الآثار كالأواني والحلي والأسلحة الثمينة . ورأيت من جملتها سيفاً لمحمد علي الذي كان ينازل به أعداءه ، ودرعه و خوذته وقميصه وبعض ثيابه وقد أثر فيها البلى ، وسيف ولد إبراهيم باشا .

متاحفها :

وفي القاهرة متاحف غير هذا ، منها متحف الآثار القديمة من عهد الفراعنة المسمى بانتيكا خانه . فإنه من أجمل متاحف الدنيا . يحتوي على مخلفات فراعنة مصر . وهو قصر بديع الإتقان ، عظيم البنيان ، من أفخر الأبنية وأضخمها وأجلها . فيه قاعات كثيرة ، مشحونة بالآثار النفسية . فيحتوي الدور الأسفل جميع الآثار الكبيرة من تماثيل ملوك الفراعنة وصفائح قبورهم ، و توابيت حجرية ،

و أجزاء من المباني الأثرية التي هي من سنة ٥٠٠٠ إلى ٣٤٠ قبل الميلاد . و الدور الأعلى يحتوي الأواني و أثاث الطباخة و أدوات الموتى من كل العصور . و مما يدهش الأبصار ويحير الأفكار هناك رؤية أجسام مخنطة من فراعنة مصر ، منها جثة منفتح الذي هو فرعون موسى الذي أغرقه الله في البحر ، و نجى بدنه بعد الغرق لقوله تعالى و هو أصدق القائلين :

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (يونس : ٩٢)

ولا يزال بدنه موجودا هناك مدرجاً في كفنه عبرة لمن اعتبر ، وقد كتب اسمه بالهيرايطيقي على موميته . و قد عثروا على هذه الجثث سنة ١٨٨١ و سنة ١٨٩٨ في دفينة الدير البحري و في بعض المقابر .

متنزهاتها :

وأما متنزهات هذه المدينة فهي من أجمل المتنزهات .
منها الحديقة الأزبكية . وهي تشغل مساحة عظيمة في وسط
المدينة ، تحف بها من جميع جهاتها قصور و فنادق ظريفة
وقهاوي منيفة ، ويحيط بالحديقة شبّاك من حديد . و لكل
واجهة من واجهاتها الأربعة باب يفضي إليها . و أما منظرها
فمنظر عجيب ، تنتظم بكل جهاتها الأشجار ، وتفيء
ظلالها الوارفة عليها نزهة للأبصار ، والماء يطرد فيها ،
ويتخلل جميع نواحيها . وفيها مواضع للقهوة ، ومقاعد
على حافات طرقها ، يجلس عليها المتفرج . وتضرب
الموسيقى فيها في كل أسبوع مرة . و فيها مواضع للترحلق .
وكيفيته هو أن يلبس الإنسان نعلًا شروى^(٥٧) القباقيب ، قد
رُكِّبَتْ على عجلات ، فتجري به وهو واقف من دون نقل

(٥٧) أي مثل .

رجليه. وتقع بين المتزحلقيين في ذلك مسابقات و منافسات .
ومنها جزيرة بولاق ، فكلها رياض و غياض ، تستميل
الأبصار حسناً ، و تنشرح برؤيتها الصدور ، وينتابها الرجال
والنساء والأولاد في كل يوم ، و على الأخص يوم الأحد ،
فتراهم يمرحون فيها . وبها مقاعد من خشب يجلس عليها
المتفرج ، ومواضع للقهوة ، ومحل للعب . و يفصل بينها
والمدينة نهر النيل . و يصلها بالمدينة جسران ، أحدهما بأزاء
بولاق ، و الآخر بقصر النيل . أما الأخير فإنك لا تزال تراه
في وقت العصر مزدحماً للناس و العوائل ، حتى إن من شاء
أن يمر فيه من جهة أخرى يعرض نفسه للخطر . و على كل
طرفي الجسر اسطوانتان عليهما تمثال للأسد . و كنت كثيراً ما
أستغرق ساعاتي بالعودة عصراً على رصيف بجانب هذا
الجسر ، فكنت أرى أهل الثروة من الرجال والنساء يمرون
عليه متفاخرين بما فوقهم من اللباس ، وبما تحتهم من
المركوب ، والتهيه والعجب يلمعان من وجوههم. فثم ترى

النساء يخطرن ، وهن متبرجات ، فطالما يذكرني ذلك بقول
علي بن الجهم :

عيون المها بين الرصافة و الجسر

جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

جوامعها :

ويوجد بالقاهرة مساجد كثيرة ، فهي أكثر بلاد الله
مساجد ، ربما يوجد منها الأربعة والخمسة في موضع
واحد ، ولنقتصر على ذكر مساجدها الشهيرة . منها جامع
محمد علي باشا . وهو في وسط القلعة ، وهو من أجمل
العمائر . تعلوه قبة سامية في الهواء^(٥٨) ، وتحتها أربع قباب ،
ويكتنفها مآذنتان رائعتا المنظر . من أي جهة استقبلت المدينة
تراها . وأما القلعة التي بُنى الجامع فيها ؛ فهي من الآثار
العظيمة لهذه المدينة ، انتدب لبنائها السلطان صلاح الدين

(٥٨) في الأصل " الهوى " ، ولا يستقيم معها المعنى ؛ إذ إن الهوى هو الميل والحب ،
والهواء هو الفضاء والريح الرقيقة.

الأيوبي في خلال سنة ٥٧٨ هـ ، إلا أنه لم يحفظ الأيام من بنائها الأصلي سوى السور الخارجي من الجهة الشرقية ، وبعض أبراجها الداخلية . وبها بئر عجيبة الشكل ، قيل حفرها السلطان صلاح الدين عندما بنى القلعة ، وهي الآن معروفة ببئر يوسف ، ويُنزل إليها بدرج محكمة الصنعة منحوتة من نفس جدار البئر .

ومنها جامع الرفاعي . وهو بقرب القلعة . وهو من الجوامع الغربية الرائقة المنظر ، الواسعة البنيان . فلهذا الجامع من التأنق والغرابة ما يعجز عن وصفه الواصفون ، فإن حيطانه كلها من الرخام العجيب الشكل ذي ألوان طبيعية ، ما يقيد الأبصار حسناً وجمالاً . فسبحان الله المبدع . وهو معقود على أعمدة من المرمر على أحسن ما يكون من الزخرفة والإتقان . وبجملته مفروش بالطنافس النفيسة الغالية الثمن .

ومنها جامع ابن طولون ، المنسوب إلى الأمير أبي العباس

أحمد بن طولون صاحب الديار المصرية المتوفى في سنة ٢٧٠ هـ . شرع في بنائه سنة ٢٥٩ هـ ، و قيل في سنة ٢٦٤ هـ . و أنفق على عمارته مائة ألف وعشرين ألف دينار . و هو الآن مهجور لا تقام فيه الصلاة ، و لا يسمح للزائر الدخول إلا بإذن من الحكومة .

ومنها جامع المؤيد . و هو جامع فخيم من أكبر جوامع مصر وأقدمها . و لا يزال على حاله ، تقام فيه الصلاة . وبجذائه باب يُسمى باب المتولي ، ولبعض أهل مصر في هذا الباب اعتقادات وأوهام فاسدة . و تجدهم يتباركون به ويقبلونه بكمال التخشُّع والخضوع ، و يقرؤون الفاتحة ، و يعلقون على مساميره ألوية بيضاء وحمراء وسوداء ، و يزعمون أن المتولي يحضر إلى هذا الباب . وعليه رجل من الدراويش يأخذ النذور .

ومن جوامعها العتيقة جامع برقوق . و هو جامع كبير ، وله باب يسحر الأبواب ببديع صنعته . و منها جامع الأزهر .

فهو من أشهر جوامع الإسلام . شرع في بنائه جوهر ، القائد الصقلي مولى المعز لدين الله سنة ٣٥٩ هـ . و كمل بناؤه سنة ٣٦١ هـ ، وترتب المتصدرون لقراءة العلم فيه سنة ٣٨٠ هـ . فقد جعل هذا الجامع مدرسة للعلم من ذلك العهد . وهو أقدم المدارس الإسلامية المشهورة في العالم . ويوجد في الأزهر الآن مكتبة عمومية بلغ ما جمع فيها نحو العشرين ألف مجلد تقريباً . ويدرس فيه ٥٨٧ مدرساً ، و عدد طلبة العلم فيه ١٤٩٥٩ طالباً . ومقدار ما ينفق الأزهر من خبز يومياً ١١٦٧٤ خبزاً ، و من نقود سنوياً ١٣٨٠٩ جنيهاً . وليس في الأزهر عناية تذكر بالنظافة ، فكثيراً ما ترى حصره متلطخة بالمداد ، وقد علاها الغبار وأسودّت ، وذلك لقلة عناية الطلبة بالنظافة . وأما التعليم فيه فهو منحصر في النحو والصرف وعلوم الدين و الشريعة و مشتملات اللغة العربية . ولقد كان في العصر الغابر يُدرّس فيه زيادة على هذه العلوم ، فإنه كان يُدرّس كافة العلوم من العلوم العقلية

والنقلية والرياضية وعلم تقويم البلدان وعلم الطب وعلم
الهيئة والحكمة وغيرها .

مزاراتها وموالدها :

وفي القاهرة عدة مزارات ومشاهد مباركة ، منها مشهد
الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما . وقد
بُني عليه بنيان حفيل . و المدخل إلى هذه الروضة الكريمة
على مسجد عجيب البناء ، معقود كله على أعمدة من
المرمر ، مفروش بطنافس نفيسة . وقد حضرت للصلاة فيه
مراراً ، وقد شاهدت في هذا المسجد وفي أكثر مساجد مصر
عادة استحسنتها جداً ، وهي قبل أن يشرع الإمام في
الصلاة ، و الغالب قبل صلاة الجمعة أو العشاء ، أن يقوم
أحد من القراء فيتلو القرآن بصوت حسن وأسلوب لطيف ،
مما تطير له القلوب اشتياقاً و تذوب به الأنفس احتراقاً .
ولهؤلاء القراء في معرفة تلاوة القرآن شأو لا يبلغه غيرهم في

العالم ، إلا أن بعضهم قد يبالغ في التلحين حتى يخرج عن حد الجواز ، فيصدق عليه قول صاحب المؤيد في بعض أعداده حيث قال :

" و في اعتقادي أن تلحين الآيات القرآنية على الطريقة المألوفة الشائعة بين المسلمين كانت أكبر دواعي انخطاطهم منذ قرون مضت إلى الآن ، لأن هذا التلحين جعل القرآن من قبيل المغاني التي تؤثر على مشاعر النفس من السامع بتأثير الصوت و أنغامه لا تأثير المعنى المقصود بالذات حتى إن السامع كثيراً ما ينتعش وجدانه سروراً أو تنفعل نفسه انفعالاً يختلف أنا فأنا من مجرد سماع صوت القاريء تلحيناً من حيث لا يعرف الآية التي يلحنها لبعدها ما بينه وبين القاريء بعداً لا يمكن معه تمييز الكلمات ما هي و من أي سورة تتلى .

وبطول العهد و زيادة إلف الناس لهذه الطريقة اتخذ تلحين القرآن ضرباً من الضروب المكملة لسرور الجماعات

في الأفراح ، أو المسلية للنفوس في المآتم ، وشعائر الأحزان .
وبذلك خرجت قراءة القرآن عندنا من دائرة الوحي النازل
بها من عند الله إلى دائرة صناعية يستوي الأمر والنهي
والزجر الشديد و القصص التاريخية و المواعظ الحسنة
والدعاء ، كلها تطبق على نقرات الجركا والسيكا والحجازي
و العراقي و ما أشبه . فلا تقع الآية الصاعدة بالحق في أمري
الدنيا و الآخرة على سامع إلا كما تقع مقاطع التلحين عند
سماع المغنين . تلك الآية التي كانت تلقى على سمع
الأعرابي و قد امتلأ قلبه كفرًا و شرًّا ، وآخر في كل جراحة
من جوارحه غدر للإسلام فكأنما هي الصاعقة نزلت من
السماء بأشد تأثيرها على جميع حوأسه فيغشاه منها ما
يغشاه ثم لا يفيق ، إلا و هو صاغر أمام هذه القوة الإلهية ،
يبهت منها أولاً ، ويخضع لها ثانياً ، أصبحت لا تؤثر على
كل سامع لها بطريقة القرآن المألوفة الآن إلا كما تقع مقاطع
التلحين عند سماع المغنين . إن جاد الملحن سمع من كل

أطراف المجلس الله الله أحسنت أحسنت ، كما يسمع المغني
المطرب سواء بسواء وإلا فلا.

ثم زاد الطين بلة أن ملحني القرآن أنفسهم تفننوا في
طريقة تلحينه بالتخنث بالصوت وإبداء الحركات الغريبة
المختلفة في الإلقاء بما أخرجه عن كونه قرآناً إلى الغناء
المحض ، ففقد السامعون بذلك كل شيء يعزى إلى قراءة
القرآن وسماعه . وإذا كان القرآن كتاب الله الذي أنزل على
سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لهداية البشر و تقويم
أخلاقهم و إصلاحهم في معاشهم ومعادهم يتقلب في كيفية
أدائه و إلقائه إلى هذا الحد ، وتنصرف مشاعر الوجدان عند
سماعه عن معانيه إلى محض مغان ، هي لجوهره الأسنى
عرض عار مستعار ، فليس بغريب أن تفسد الأمة الإسلامية
بهذا الفساد ، كما كان صلاحها بذلك الصلاح". أهـ

وبخارج الجامع عدة فنادق ينزل فيها الغرباء من الحجاز
و الشام واليمن و سائر البلاد الإسلامية . و هناك الكثير من

المطاعم والقهاوي على الطراز العربي ، ينتابها الغرباء .

ومنها مشهد السيدة زينب رضي الله عنها ، و عليه بناء
حفيل ، وبازائه مسجد ، و لا تزال ترى هذا المشهد غاصاً
بالزوار من الرجال والنساء داعين متوسلين إلى الله سبحانه
وتعالى ببركة هذا المشهد المقدس .

ومنها مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها . ومنها مشهد
الإمام الشافعي رضي الله عنه ، و هو بموضع يُسمّى القرافة ،
عليه بناء عظيم يشهد بعظم صاحب القبر . والقرافة هذه
جبانة عظيمة تحتوي على كثير من المشاهد العظيمة . ومنها
مشهد عمر بن الفارض ، و هو أيضاً بالقرافة ، وذهبنا إلى
زيارته . وعلى مشهده بناء حفيل ، وبازائه بناء في غاية
التأنق ، وفيه قبر قيل لنا أن ذلك القبر لإحدى بنات الخديوي
إسماعيل باشا . و بعد خروجنا توجهنا إلى زيارة قبر هناك
تحت جبل يُسمّى بقبر الإمام المغاوري . فلما انتهينا إليه
وجدنا في ذلك المكان بناء متسعاً فيه غرف و مساكن قيل لنا

إنه زاوية قد بنيت باسم صاحب ذلك المشهد ، يسكن فيها قوم من الأتراك . و المدخل إلى المشهد على هذه الزاوية ، فيخترق الزائر وسط الزاوية حتى ينتهي إلى غاب عظيم تحت جبل يشغل مساحة عظيمة ، و القبر في طرف الغار .

ومن أغرب ما رأيت هناك هو بينما أنا واقف أتلو الفاتحة إذ رأيت امرأة صعدت على صخرة هناك ، وألقت نفسها عليها ، ثم تدحرجت منها إلى الأرض حتى أخذت حظها من ذلك . وبينما أتعجب من هذا الاعتقاد التدحرجي الذي لم يتح لي رؤيته في عمري ، و لا خطر في بالي أن أراه ؛ إذ قام رجل كان واقفاً هناك فحذا حذو المرأة ، إلا أنه كان تدحرجه شديداً ، حتى إنه من شدته وصل إلى المكان الذي كنت فيه واقفاً . فتزحزحت عن المكان ، لئلا يدهسنني برجله ، فناخذ كلُّنا في التدحرج .

ويعمل لجميع المشاهد في هذه المدينة في كل سنة

مواليد^(٥٩). قيل يعمل في كل سنة في مدينة القاهرة وضواحيها ما يقرب من الثمانين مولداً . و لعامة المصريين في هذه المواليد قوة اعتقاد ، حتى أن من عاقه عائق يمنعه عن الزيارة يتشاءم جداً من قطع عادته ، ويتوقع شراً .

والمولد عندهم عبارة اجتماع الناس رجالاً و نساء في بضعة أيام ، على مشهد صاحب ذلك المولد ، للقراءة ، وتوقد ليلاً السرج التي لا يحصيها العدُّ على المشهد و على جميع البيوت والدكاكين المجاورة . وقد شاهدت ذلك في مولد السيدة زينب رضي الله عنها ، ورأيت الناس رجالاً و نساء مزدحمين خارج المشهد وداخله فلم يتيسر لي سماع المولدة ، لكثرة الازدحام الذي هو كثيراً ما يفضي بسببه إلى ما لا يحمد عقباه من سرقة و خطف ودهس ، و ما أشبه ذلك . أو هو على الأقل أن يصادفك أحد فيلقيك على

(٥٩) جمع مفردة مولد . وهو حفل ديني يقام في ذكرى وفاة شيخ من شيوخ الطرق الصوفية . وربما كانت التسمية قادمة من الاحتفال الذي يقام في ذكرى المولد النبوي الكريم .

الأرض أو يدوسك بقدمه ، و إذا سألته أو عاتبته على ذلك قال لك : "معلش" (٦٠). فهذه الكلمة قد اعتاد بها المصريون في كل شيء يحدث مما يؤذي الإنسان في حاله أو ماله أو شرفه أو عرضه ، كأنَّ هذه الكلمة عندهم عبارة عن قاض يحكم بينهم ، ويفصل في شؤونهم كلما أشكل عليهم أمر أو قام بينهم حادث . أو أنها تقوم مقام الطبيب و دوائه ، أو هي كفيلة برد الشرف المثلوم ، والعرض المكلوم .

مفارقات :

ومن الكلمات التي اعتادها المصريون كلمة "شيء لطيف" . فإنك لتلقي على مسامع صاحبك قصة يتفتت لها الأكباد ويلين الجماد ، وتصف له حالة من أتعس حالات البؤس ، وبينما تريد معونته ومشاركته إياك بألفاظ تخفف عنك ما أظناك و أبكاك ، إذا به يقول لك : "شيء لطيف" . كأن اللطافة عنده لا معنى لها إلا العذاب .

(٦٠) تركيب باللهجة المصرية لعبارة "ما عليك شيء".

وشاهدت في الجزيرة أيضاً مولداً لأحد الأولياء ذهبنا إليه ليلاً فمررنا على أناس هناك يزمرون وينقرون دفاً بأصوات شجية ، فسألت عنهم ، ف قيل لي إنهم أهل الطريقة ، وتلك طريقتهم في الذكر ، فسبحلت وحوقلت (٦١) ، فأخذني العجب مأخذه ، و عجبت ممن له عقل ويعتقد أن تلك الأباطيل والأضاليل من الدين .

عمرانها :

وأما بيوت مصر ، و على الأخص بيوت الأغنياء ، فلا شيء أجمل منها ؛ لإحكام بنائها و حسن وضعها ، فهي ذات رونق وصنع بديع ، مبلّطة بالرخام ، مزخرفة بالنقوش الجميلة و العمد . و درجها في غاية التأنق ، و طيقانها محكمة طويلة ، و مراحيضها في غاية النظافة و الترتيب . و أكثر هذه البيوت قائمة في وسط حدائق غناء . و يبنون في جنبها

(٦١) أي أنه قال سبحانه الله ، و لا حول و لا قوة إلا بالله .

محلاً للجلوس ، ولاستقبال الزائرين يسمونها (سَلْمَلِك) ،
على مثالها في التأنق . وقد أجاد في وصف قصور مصر
سليم بك العنجوري الدمشقي ، وأصاب حيث قال :

شادت يد الإِتقان في أكنافها

فللاً يناطح روقها الأقمارا (٦٢)

من كل صرح باذخ ، شرفاته

تبدي متى حان الأصيل عذارى

غر الوجوه فواتناً تزري الدمى

بيضاً وسمراً خرداً أبكاراً

يختلن من فوق العروش بواسماً

جذلاً وهنّ من النعيم سكارى

يرمقن أبناء السبيل بأعينٍ

توحي إلى أهل الهوى أسراراً

(٦٢) الروق : القرن ، ويريد به هنا أعلى نقطة بها .

حفت بجنات الأزاهر، قد حوت
ورداً و آساً نرجساً و عراراً (٦٣)
جمعت لأسباب الهناء ذرائعاً
تولي النزيل من المنى أوطاراً
يمسي و يصبح و النعيم مهاده
حتى لينسى أهله و الجاراً

ولبعض أرباب هذه البيوت مراكب في النيل ، يُسمونها
بالذهبيات ، يقيمون فيها في فصل الصيف ؛ هرباً من
معمعانه ، وتنشقا للهواء النقي . و بناء هذه المراكب في غاية
التأنق و حسن الترتيب . قد جمعت أسباب الراحة بحيث لم
يكن ينقصهم شيء مما في بيوتهم . و قد كان العلامة البحر
الْحُضَم ، شارح كتاب الأم ، السيد أحمد بك الحسيني قد
انتقل إلى إحدى هذه الذهبيات أثناء إقامتي بالقاهرة ،

(٦٣) العرار : شجر له ورق اصفر ، العين . قال الشاعر :

تمتع من شميم عرار نجد

فما بعد العشيّة من عرار

فكنت أزوره فيها . ولهذا السيد سيرة محمودة ، وطريقة
سديدة ، وهو من التواضع ولين الجانب و محبة الغرباء
وإقباله إليهم على وتيرة سعيدة . نفع الله به المسلمين ،
وجزاه عنا خيرا .

مصر هبة النيل :

وليس في مصر إلا نهر واحد ، وهو النيل الذي هو
سبب في تكوين أراضيها الزراعية ، و أي بقعة لم يصل
إليها ماءؤه فهي أرض يابسة مجدبة غير قابلة للزراعة . و في
زيادة النيل ونقصانه مما يحير الأفكار إعجاباً ، وهو أنك
ترى ماءه يزيد في كل سنة في ميعاده المحدد له . وقد كان رائقاً
صافياً فيتغير لونه بسرعة ، و يرتفع بالتدرج إلى انتهاء مدته
المعلومة ، فينقص شيئاً فشيئاً ، و يرجع إلى مجراه الأصلي ،
كما وصفه الشاعر :

واهاً لهذا النيل أي عجيبة

بكر بمثل حديثها لا يسمعُ

يلقى الثرى في العام و هو مسلم
حتى إذا ما ملَّ عاد يودعُ
مستقبل مثل الهلال فدهره
أبدًا يزيد كما يريد ويرجع^(٦٤)
و قال الآخر :
كَأَنَّ النِيلَ ذُو فَهْمٍ وَلُبٍّ
لَمَّا يَبْدُو لَعَيْنِ النَّاسِ مِنْهُ
فِيَأْتِي حِينَ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ
وَيَمِضِي حِينَ يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ
ولتميم بن المعز (الفاطمي) :
يَوْمَ لَنَا بِالنَّيْلِ مَخْتَصِرٌ
وَلِكُلِّ وَقْتٍ مَسْرَّةٌ قَصْرٌ
وَالسُّفُنُ تَصْعَدُ كَالْخَيُْولِ بَنَا
فيه وجيش الماء منحدرٌ

(٦٤) وردت الأبيات في كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطب والآثار، ج ١، ص ٢٣-١٦٧، لأحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني العبيدي.

فكأنما أمواجه عُكْنُ (٦٥)

وكانما داراته سررُ

والسبب في فيضان النيل هو نزول الأمطار الغزيرة ببلاد الحبشة والسودان ، فإذا لم تنزل هذه الأمطار في سنة من السنين نقص فيضان النيل في تلك السنة بالنسبة لما نقص من الأمطار . وبتبدىء الأمطار المذكورة في شهر مارس ، لكن لا يظهر أثرها في نيل مصر إلا في يونيه . و سبب هذا التأخير طول المسافة التي يقطعها الماء إلى أن يدخل أرض مصر ، وما تبتلعه الرمال الجافة التي يمرُّ عليها . وأول ظهور الفيضان بمصر ليلة ١١ من شهر يونية فيتغيَّر لون مائه تدريجياً ؛ من اختلاطه بالمواد التي مرَّ عليها . ويبلغ عادة إلى نصف زيادته المعتادة في ١٥ أغسطس ، ويستمر في الزيادة إلى ٢٠ سبتمبر، ثم ينقص تدريجياً وينحصر في مجراه الأصلي . ويستمر في النقصان إلى شهر مايو من السنة التالية ،

(٦٥) العُكْن : الأطوار في بطن الجارية السمينة . العين .

ثم يبقى على حالته التي وصل إليها تقريباً إلى زمن زيادته المعتادة سنوياً .

وأعدل مقادير زيادته عادةً سبعة أمتار تقريباً . ثم إن زاد عن فيضانه عن المقدار المذكور أفضى إلى الغرق و الإتلاف . وإن نقص أدى إلى الجذب و القحط و الغلاء .

ولأهل مصر في زيادته عادة ، وهي أن يحتفلوا له في كل سنة مرةً ، فيخرج عامة أهل مصر إلى شاطئ النيل ليشاهدوا الاحتفال . وصورة الاحتفال هو أن يركب أرباب الدولة والصولة سفينة شراعية قد زخرفت وزُيّنت بأعلام الدول ، تقطرها سفينة بخارية تجري على النيل . و بكل بضعة دقائق تطلق ضربة مدفع . و في مساء ذلك اليوم تنصب الحكومة خيمة كبيرة على شاطئ النيل ، وتبسط فيها للضيافة ، ويُدعى لها أعيان البلد .

ولقد كان لهذا النيل في قديم الزمن سنة سيئة ، فلما فتح عمرو بن العاص مصر أبطلها . قال ابن عبد الحكيم :

ولما فتح المسلمون مصر جاء أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل بؤونه من شهر القبط ، فقالوا :

"أيُّها الأمير إن لبلدنا هذه سنة لا يجري النيل إلا بها . وذلك أنه إذا كان لاثنى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها ، و جعلنا عليها من الحلبيّ والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في هذا النيل " . فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون في الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما قبله . فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى (٦٦) لايجري النيل قليلاً ولا كثيراً حتى همّوا بالجللاء . فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك . فكتب إليه عمر : قد أصبت ، إن الإسلام يهدم ما قبله ، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي هذا . وإذا في كتابه " بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد ، فإن كنت تجري

من قَبْلِكَ فلا تجر ، وإن كان الواحد القهَّار يجريك فنسأل
الواحد القهَّار أن يجريك " . قال ، فألقى عمرو بن العاص
البطاقة في النيل ، وذلك قبل عيد الصليب بيوم . وكان أهل
مصر تأهبوا للخروج منها والجلء ؛ لأنه لا تقوم مصلحتهم
إلا بالنيل ، فأصبحوا يوم الصليب وقد جرى النيل بقدرة
الله تعالى ، وزاد ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، و انقطعت
تلك السنة السيئة عن أهل مصر (٦٧) .

(٦٧) هذا خبر ملخص لما ورد في كتب التاريخ ، ونصه : "وقيل: إنه لما ولي عمرو
بن العاص رضي الله عنه مصر أتاه أهلها حين دخل بؤونة من أشهر القبط
المذكورة فقالوا له: أيها الأمير، إن لنيلنا عادة أو سنة لا يجري إلا بها؛ فقال
لهم: وما ذاك؛ قالوا: إنه إذا كان في اثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر يعني
بؤونة عمدنا إلى جارية بكر من عند أبويها وأرضينا أبويها وأخذناها وجعلنا
عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم القيناها في هذا النيل فيجري؛ فقال
لهم عمرو بن العاص: إن هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان
قبله. فاقاموا بؤونة وأبيب ومسرى لا يجري النيل قليلاً ولا كثيراً حتى هموا
بالجلء؛ فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله
عنه، فكتب إليه عمر بن الخطاب: قد أصبت، إن الإسلام يهدم ما قبله، وقد
أرسلنا إليك ببطاقة ترميها في داخل النيل إذا أتاك كتابي. فلما قدم الكتاب على
عمرو بن العاص رضي الله عنه فتح البطاقة فإذا فيها:

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر. أما بعد، فإن كنت تجري من
قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار الذي يجريك، فنسأل الله الواحد القهار
أن يجريك. فعرفهم عمرو بكتاب أمير المؤمنين وبالبطاقة، ثم ألقى عمرو البطاقة
في النيل قبل يوم عيد الصليب بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلء والخروج منها
لأنه لا يقيم بمصالحهم فيها إلا النيل، فأصبحوا يوم عيد الصليب وقد أجراه الله
سنة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، وقطع تلك السنة القبيحة عن أهل مصر ببركة

ضواحي القاهرة

فمن ضواحيها مصر القديمة ، التي كانت تُسمّى قديماً
بالفسطاط ، و كانت عاصمة الديار المصرية قبل تأسيس
القاهرة . أحدثها عمرو بن العاص عند فتحه مصر وصارت
دار الإسلام ، و انتقل كرسي المملكة من مدينة الإسكندرية
بعد ما كانت منزل الملك زيادة على تسعمائة سنة . و صارت
من حينئذ الفسطاط دار الإمارة نزل بها أمراء مصر . فلم
يزل ذلك حتى قدمت عساكر الإمام المعزّ لدين الله الفاطمي
مع كاتبه جوهر القائد ، فبنى القاهرة وصارت خلافة .
واستمر سكن الرعية بالفسطاط . قيل وبلغ من وفور العمارة
و كثرة الخلائق ما أربى على عامة مدن المعمورة . قيل كان

سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه . ينظر كتاب النجوم الزاهرة في ملوك
مصر والقاهرة ، ج ١ ، ص ١٣ .
وحول النيل وأثره على الحياة الاجتماعية والاقتصادية يمكن العودة الى كتاب
" النيل ومصر " ، للدكتور محمد محمود علي أبو زيد (دار الهداية ، القاهرة :
١٩٨٧م) . وإن كانت دراسته تغطي القرون الأربعة الهجرية الأولى فإنها تضم
مادة مفيدة لدور النيل في حياة مصر .

فيها من المساجد ستة وثلاثون ألف مسجد، وثمانية آلاف
شارع، وألف وسبعون حماماً. قال الشاعر في مدح
الفسطاط وأهلها :

حبذا الفسطاط من والدة
جنبت أولادها دُرَّ الجفا
يرد النيل إليها كدرأ
فإذا مازج أهلها صفا
لطفوا فالمن لا يألفهم
خجلاً لما رآهم أطفاً (٦٨)
و قال غيره :

أحن إلى الفسطاط شوقاً وإنني
لأدعو لها أن لا يحل بها القطر (٦٩)

(٦٨) علم الدين فخر الترك أيدمر عتيق وزير الجزيرة، فوات الوفيات، ج ١، ص ١٤٠ .
(٦٩) القطر : المطر .

و هل في الحيا من حاجة لجناها
وفي كل قطر (٧٠) من جوانبها نهر
تبدّت عروساً و المقطّم تاجها
ومن نيلها عقد كما انتظم الدرّ (٧١)

والسبب في تسميتها بالفسطاط هو أنه لما نزل عمرو بن
العاص على موضع الفسطاط ، وكان بها بناء يعرف بالقصر
حوله مساكن ضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع المنسوب
إليه . ثمّ لما فتحها أراد التوجّه إلى الإسكندرية لقتال من بها
من الروم أمر بنزع فسطاطه من موضع الفسطاط ، فإذا يمامة
قد باضت في أعلاه ، فقال : لقد تحرّمت بجوارنا ، اقرّوا
الفسطاط حتى تنقف (٧٢) وتطير فراخها . فأقرّ فسطاطه ،
ووكّل به من يحفظه أن لا تهاج ، ومضى إلى الإسكندرية ،
وأقام عليها ستة أشهر حتى فتحها الله عليه . فكتب إلى عمر

(٧٠) قطر : جانب .
(٧١) الشريف العقيلي .
(٧٢) تنقف : تفقس .

بن الخطاب يستأذنه في سكنها. فكتب إليه لا تنزل بالمسلمين منزلاً يحول بيني وبينهم نهر ولا بحر. فقال عمرو لأصحابه: أين نزل؟، فقالوا: نرجع أيها الأمير إلى فسطاطك فنكون على ماء و صحراء. فقال للناس: نرجع إلى موضع الفسطاط ذلك .

وأما حالها الآن فقد قلتُ عمارتها جداً عمّا كانت عليه، وأخنى عليها الدهر ونقضها، وأغلب مبانيها قد تولّى عليها الخراب ، وأكثر شوارعها غير مستقيمة ، إلا أن مباني القاهرة كادت أن تتصل بمبانيها .

وأما جامعها المشهور المنسوب إلى عمرو بن العاص فقد دخلته وعاينته جامعاً كبيراً قديماً البناء ، غير مزخرف . وهو أول مسجد شيد في البلاد المصرية بعد الإسلام . يُحتفل فيه الآن في كل سنة لصلاة آخر جمعة من رمضان . قيل إن موضع هذا الجامع كان جبّانة حاز موضعه قيسبة بن كلثوم التحبيبي ، ونزله . فلما رجعوا من الإسكندرية سأل عمرو

قيسبة في منزله هذا أن يجعله مسجداً فتصدق به قيسبة على المسلمين ، فبني سنة ٢١ هـ . و كان طوله خمسين ذراعاً في عرض ثلاثين ذراعاً . ويقال إنه وقف على إقامة قبلته ثمانون رجلاً من الصحابة الكرام ، منهم الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت و أبو الدرداء وأبو ذر الغفاري ، و غيرهم (٧٣) .

وعلى مقربة من مصر القديمة على شاطئ النيل ، والنيل معترض بينهما ، قرية تُعرف بالجيزة . و قد توجهت إليها في المركبة الكهربائية (٧٤) ، و دخلت في بستانها المسمى بجنيانة الحيوانات (٧٥) . و هو في خارج هذه القرية . و قد جمع فيه كثير من عجائب مخلوقات الحيوان و الطيور ، منها

(٧٣) كتبت حول مصر الإسلامية العديد من الكتب مثل كتاب " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى الاتايكي (٨١٣-٨٧٤هـ) (وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر : ١٩٦٣م) ، كما نذكر هنا كتاباً وقع بين أيدينا هو : Stanley lane-poole, History of Egypt in the middle ages (Haskell house publishers LTD , New York : ١٩٦٩) .

(٧٤) هي القطار الكهربائي .

(٧٥) حديقة الحيوانات .

مجلوبة من أمريكا ، ومنها من آسيا كالهند وبلاد العرب
وفارس والشام ، ومنها من أفريقيا كبلاد الكاب (٧٦) وبلاد
الزنج و أرض المغرب . وعلى مقربة من هذه القرية توجد
الأهرامات الثلاثة المسماة بأهرامات الجيزة ، التي هي من
عجائب الدنيا ، كأنها قباب مضروبة إلا أنها محددة
الأطراف ، قد قامت في جو السماء ، ولا سيما الاثنان منها ،
فإنهما يغص الجو منهما سموّاً . ولأبي الطيب المتنبّي فيهما :
أين الذي الهرمان من بنيانه

ما قومه ما يومه ما المصرع

تتخلف الآثار عن أصحابها

حيناً و يدركها الفناء فتتبع

فهذه الأهرامات شُيّدت قبوراً للملوك مصر . فكان أحد
ملوك الفراعنة لما يُسلم زمام الملك يشرع في بناء قبره .
وبالقرب من جهة الشرق صنم رأسه رأس إنسان ، وجسمه

(٧٦) بلاد الكاب : جنوب أفريقيا الآن .

سبع^(٧٧)، يُعرف بأبي الهول. وهو منحوت في الصخرة ، ولا يظهر للعيان منه اليوم إلا نصفه ، وقد طمرت رمال الصحراء النصف الثاني . و بجواره معبد قديم نازل عن وجه الأرض^(٧٨) .

وتوجد تجاه هذه القرية جزيرة الروضة. ويقال إن ابنة فرعون لقيت بالقرب منها في النيل تابوت موسى عليه السلام .

ومن ضواحي القاهرة حلوان ، وهي على الشاطيء الشرقي للنيل. وقد توجهت إليها ، فإذا هي مدينة جميلة على موقع جميل ، طيبة الهواء ، وبها كثير من المباني الحسنة ، وبها ولد الخليفة المشهور بالعدل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. وكان أبوه عبد العزيز خرج من مصر لما وقع الطاعون بها ، فنزل حلوان فأعجبته فاتخذها

(٧٧) أي أسد .

(٧٨) للمزيد عن الرحلة الفرعونية يمكن العودة إلى كتاب " مصر الفرعونية " لأحمد فخري (مكتبة الأنجلو ، القاهرة : ١٩٨٣) .

سكنّا ، وجعل بها الحرس والأعوان ، وبنى بها الدور
والمساجد ، وعمرها أحسن عمارة وأحكمها ، وغرس نخلها
وكرمها ، فقال (عبد الله) ابن قيس الرقيّات :

سقى لخلوان ذي الكروم و ما

صُنّفَ من تينه و من عنبه

نخل مواقير بالقناء^(٧٩) من الـ

ببرني^(٨٠) يهتز ثمّ في سربه

أسود سكانه الحمام فما

ينفك غربانه على رطبه^(٨١)

ويوجد بها عيون مياه معدنية .

ومن ضواحي القاهرة مصر الجديدة ، وهي بمقربة من
مدينة قديمة تُسمّى بعين الشمس . وقد كانت هذه المدينة في

(٧٩) مواقير : الوقير حمل حمار وبرذون كالوسق للبعير . وتقول : أوقرتّه ونخلته
موقرة حملاً ، وتجمع مواقير ، اللسان .

القناء : القنو هو العذق بما عليه من الرطب ، والجمع القنوات والأقناء . العين .
(٨٠) البرني : ضرب من التمر أحمر مشرب صفرة ، كثير اللحاء ، عذب الحلوة ،
ضخم ، العين .

(٨١) وتنسب الأبيات لأبي عمرو بن أحمر الباهلي .

قديم الزمن عظيمة الطول والعرض ، متصلة البناء بمصر القديمة ، وهي إحدى مدن الفراعنة .

وأما مصر الجديدة فهي حديثة البناء ، جميلة المنظر ، وقد انتظمت شوارعها غاية الانتظام . أما قصورها فتذكر بقصور الجنة ، قد جُلِّتْ كلها في أعظم صورة وأجملها ، فما رأيت في البلاد المصرية بلدة تعدلها في بهجتها و حسن بنائها وانتظام شوارعها . والحقيقة إنها عروسة المدائن و غرة الجنائن ، قد انتدب في بنائها إحدى الشركات البلجيكية منذ سبع سنين أو ثمان ، فبنتُ بها القصور الرائقة والفنادق الشاهقة والأسواق والمساجد والكنائس ، فهي لم تزل آخذة في العمارة كلَّ يوم .

وبها موقع للفرجة يُسمَّى لونا بارك . فهو عبارة عن حديقة فسيحة تحتوي على رياض وغياض وبرك وحياض ، تحترق عند رؤيتها الأفكار وتلتذ بمشاهدتها الأبصار ، فترى الزوارق تجري في بركها ومجاري مياهها . فمن زورق منقضٍّ

من علو مرتفعٍ إلى سطح الماء يحمل المتفرجين ، و(من زورق) منسرب في سرايب تحت الأرض ومضايق مظلمة ومغائر مبهمة .

وبها أبنية تشتمل على الأعيب شتى يقصر القلم عن وصفها . وبها محل للقهوة . وتناثر هذه الحديقة بمصاييح لا تعد ولا تحصى . ويتنابها ألوف من المتفرجين رجالاً ونساء . وتفتح هذه الحديقة للتفرج في كل أسبوع مرتين ليلاً . ولا بد للداخل أن يدفع شيئاً برسم الدخول .

أرياف مصر

وفي أثناء إقامتي بالقاهرة أجمعت أن أسافر إلى بعض الأرياف لقصد النزهة ، فسافرت مع الأخ الشيخ سعيد بن سيف المعمرى ، والأمير سالم بن السلطان عبد الله . فركبنا القطار متوجهين إلى الصعيد ، فوقف بنا في محطة أمبابة وبولاق التكرور والجيزة والحوامدية و البدرشين و العياط

والمثانية وكفر عمار . وهنا ترجلنا وقابلنا هناك حضرة الشيخ محمد بن محمد الأشراقي . ووجدناه قد أعدّ لنا حميراً للركوب . فركبنا الحمير ، وكلما سارت بنا على حي من العرب تبادروا إلينا بالتقريب والترحيب ، كما هي سجية العرب العرباء ، وشنشنة^(٨٢) الأدباء والنجباء . فأهل الريف أهل الكرم واللطف والدعة ولين الجانب والاحتفاء بالغريب ؛ فهم رجال الدين بعد العلماء و النجباء بخلاف المتمدنين في مصر الذين ينسبون أنفسهم إلى المدنية الغربية ولم يأخذوا منها إلا قشرها المقشرة ، فهم أحدهم أن ينافس أخاه بحسن ريشه و بزته ، وبياض هندامه و ياقته ، فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنّع بالتواضع رياء ، ويذهب بنفسه عجباً و كبرياء . يزدرون الغريب ويستصغرونه و لا يألفونه . فالغريب فيهم عادم الرفيق ، ليس له منهم معين ولا شفيق .

(٨٢) الشنشنة: الطبيعة والسجية. لسان العرب.

وبعد ساعتين من ركوبنا الحمير وصلنا قرية من قرى الأرياف، ذهب عني اسمها، فنزلنا هناك، وقابلنا أهلها، وأنزلونا منزلاً مريحاً، وأكرموا مثوانا، جزاهم الله عنا خيراً.

وفي مساء ذلك اليوم خرجنا نرود أكناف^(٨٣) تلك البقاع، ونتفقد آثارها إلى أن انتهينا إلى مكان هناك، ووجدنا فيه بيتاً نازلاً عن وجه الأرض، قد استكشف عن عهد قريب، بعد ما طمرته رمال الصحراء ألوفاً من السنين. فلم تزل حيطانه قائمة على حالها لم يغيرها كُرُّ الجديدين. وترى فيه صفتين متقابلتين وفي وسطهما دهليز، وعليه باب يفضي إلى الخارج. فوقفنا هنيهة هناك ونحن نتأمل بما يقع عليه نظرنا، ونتمثل عيشة أهل تلك العصور الغابرة التي هي عصور الفراعنة الأولى.

ثم طفقنا نجول في تلك المسارح ونستنشق نسيمها

(٨٣) أكناف : أكناف الوادي نواحيه . العين .

العليل ، ونتفقد الآثار إلى أن تصوبت الشمس للمغيب ،
فعدنا إلى محل نزولنا ، ولزمناء ليلاً .

وفي الصباح عولنا على الرجوع إلى القاهرة ، و كان
بودنا لو استطعنا البقاء في تلك القرية ثلاثة أيام على الأقل ،
و لكننا مضطرون للرجوع في ذلك اليوم . فما أحلى العيش
في الأرياف ، لو لا كثرة ذبابها وبقها وبراغيثها في الصيف .

عوائد أهل مصر

فمن عوائدهم في الأعياد هو أن تتبادل بينهم رسائل
الودّ والهناء ، مشتملة على أدعية و أزكى التحية ، وقلما
يتزاورون في الأعياد ، كما هي عوائدنا القديمة معاصر العرب .
وأغلبهم يسكنون مدة أيام الأعياد في القرافات ، أي المقابر .
ولبعضهم مساكن هناك معمورة لذلك . فلا أدري كيف
يتسنى لصاحب العيد الفرح والسرور في عيده وهو بين
رفات و أموات !.

ومن عوائدهم في الأعراس المنافسة و المباهاة في تبذير المال لإقامة الأفراح ، لأنه حالما تتم الخطبة اهتموا بإعداد لوازم الفرع ، مدعين أنّ تبذير المال في ذلك من ضروريات الزواج .

وكيفية الخطبة عندهم هو أن يكلف العريس إحدى النساء من أهله أو من الجيران ، إن كان لا أهل له ، بالبحث عن ابنة . فتوجه المكلفة بذلك إلى البيوت التي فيها البنات فمتى ما وجدت ابنة على وفق مرامها بعد ما نقبت في أوصافها ، ونقرت وتأملت في محاسنها ، وتوسمت حتى لم يبق ما يتوسم ، أقبلت إلى العريس و طفقت تمثل لديه محاسنها ، وتعدد له أوصافها قائلة : " لها وجه مدور كالصينية ، وأنف مثل النبقة ، و عين مثل الفنجان ، و فم كخاتم سليمان " . و بناء على ذلك يرغب العريس في الزواج فيتزوج . ثم يتدي الفرع قبل يوم الزفاف بأيام عدة ، فيحيون ليلها بالغناء والطبل و الزمار . و في يوم الزفاف

يحضر الزوج وأهله في دار العروسة لأخذها إلى داره .

وكيفية الزفاف أن تركب العروسة على عربة مزينة تجرها أربع جياد من الخيل المطهمة ، و على مقدمتها جماعة الموسيقى ، تعزف بالألحان الشجية ، و وراءها عربات عديدة لأهلها و معازيمها . وبعضهم من يتخذ التختراوانات بدلاً من العربات .

وإذا وصلت الزفة إلى دار العريس تستقبل العروسة بالاحتفاء والتكريم والتحية والتسليم . وبعد وصولها تجلس العروسة ، وتوضع لها وسادة و تتقدم الماشطة وتبسط نحوها منديلا ، وتقول : " يا حبايب العروسة و ماشطتها " . فتتقدم أم العروسة و تلقي جزءاً من المال ، و بعدها تتقدم المعازيم و يحذون حذوها . و كلٌ يلقي على قدر طاقته ، فيكون المجموع كله للماشطة . و الماشطة عندهم هي التي تغسل البنت من يوم ولادتها إلى يوم ليلة عرسها .

وبعد ذلك يزف العريس أيضاً راجعاً إلى داره بين أصحابه وإخوانه بالشموع و غيرها على هيئة ما تقدم .

وأما عوائدهم في المآتم فهو أنه إذا مات الميت توافد إلى داره الجيران ، وعلى الأخص النساء . فتراهن هناك صارخات داخل الدار وخارجة و هنَّ يلطمن وجوههن ، ويعددن مناقب الفقيد وأوصافه بالنوح والانتحاب ، ما يدعو السامع إلى الحزن والاكتئاب . وكثير منهن يبكين و هن خاليات من الشجو فلا تسمع لهن زفرة و لا ترى في عيونهن دمعة . وقد يستأجر أهل الميت نوادب يندبن ميتهم بما تنفطر له الأكباد ، و تذوب منه قلب الجماد .

ومما يستقبح من عوائدهم خروج النساء وراء النعش إلى المقابر ، و هنَّ حاسرات الرؤوس ، مشوهات الوجوه ، في حال لا يرضى به الشرع . وعقلاء مصر يكرهون ذلك جداً ، حتى إنني في بعض الأيام كنت جالساً في دار بعض الأعيان بشبرى . و بينما أنا كذلك إذ مرت جنازة أمام الدار ، فأطل

صاحبها على نافذة هناك . ودعاني ، فأوعز عليّ أن أشرف
إلى جنازة وهو يتوجع و يتنفس الصعداء ، ويتأسف كل
الأسف بما يأتينه نساء بلده ، مظهراً لشكواه .

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة

يواسيك أو يسليك أو يتوجع

وفي ليالي المآتم يرتبون القراء يقرؤون القرآن بالأصوات
الحسان . وقد تبلغ مدة المآتم عندهم إلى أربعين يوماً .
وينفقون نفقات طائلة قياماً بما يحييون من تلك الليالي ، وما
يتناوله القراء منهم من الأجرة . ولهؤلاء القراء مراتب
متفاوتة في تجويد القرآن ، ومعرفة القراءات ، وترقيق
الصوت وتحسينه . وقد تبلغ مرتبة القاريء في شهرة القراءة
على الوجه المذكور إلى أن تبلغ أجرته لإحياء ليلة واحدة
عشرين جنيهاً .

السفر إلى الشام

وبعد إقامتي شهرين ونصف أجمعت أن أسافر إلى الشام ؛ قصداً لترويح النفس ، ولزيارة الأماكن المقدسة في القدس الشريف ؛ طلباً من الله عظيم الأجر ، و جزيل الثواب . قال عليه الصلاة والسلام " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ؛ مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، ومسجد بيت المقدس . وإن الصلاة فيه خير من ألف صلاة في غيره " . فاستخرت الله في ذلك ، فأخذت أهبتي ، وركبت القطار متوجهاً إلى بورت سعيد ، و ذلك في صبيحة ٢٠ من شعبان . وبعد ما جاوزنا الإسماعيلية بمسافة قصيرة انتهينا إلى بحيرة المنزلة ، فكان القنال عن يميننا ، والبحيرة عن شمالنا . والعرض بين القنال والبحيرة الذي تمتد فيه السكة الحديدية بين ثلاثين قدماً وأربعين ، فلم يكن منظر أبهج منه . وفي المساء وصلنا بورت سعيد ، وهي مدينة حديثة

العهد أسست في أيام محمد سعيد باشا، عند الشروع في حفر القنال، في سنة ١٣٧٧ هجرية. وهي ميناء مهم^(٨٤) على البحر الأبيض في مدخل القنال. وتنقسم إلى قسمين؛ قسم يقال له حارة العرب، يسكنه الوطنيون، وقسم يقال له حارة الفرنج يسكنه الأجانب. وهي ذات شوارع واسعة قد انتظمت غاية في الانتظام. وعدد سكانها ٤٢٣٢٨ نفساً.

فلما نزلت فيها قيّض القدر المحتوم بأن قادني أحد من أولئك المحتالين في بورت سعيد إلى فندق يُسمّى امبريال. فإن صاحب هذا الفندق أحيل خلق الله في ابتزاز واستلاب ما عند المسافر. لا يردعه رادع الحياء. يقاضيك أضعافاً مضاعفة عمّا اتفقتم عليه من الأجرة. ولا يرى في ذلك من بأس، معتقداً أن الظلم من شيم النفوس. فتباً له من خادع. وأهل بورت سعيد إذا عاملتهم وجدتهم كصاحب الفندق إلا البعض منهم، وقليل ما هم.

(٨٤) وردت في الاصل بالتأنيث، ولعلها خطأ مطبعي.

ولعلمي أن الباخرة تزايل الثغر في مساء اليوم التالي بت
في الفندق. وفي الصباح خرجت للتنزه في أكناف المدينة.
فقضيت بذلك نهاري. وفي الساعة التاسعة مساء اتجهت إلى
الميناء، فلما انتهيت إليه دخلت لأقيد اسمي في دفتر
الحكومة، لأنها فرضت على كل مسافر أن يقيد اسمه قبل
السفر. فوجدت الزحام هناك شديداً، فلم يتسن لي أن
أقيد اسمي إلا بشق النفس؛ لكثرة المسافرين. ثم خرجت
ودخلت إلى قلم الصحة فقيدوا اسمي، ودفعت إليهم
٦ غروش صاغ، وأعطوني ورقة الجواز.

ثم استأجرت قارباً لنقلنا إلى الباخرة، وهي من البواخر
النمساوية. ففي الساعة ١١ أقلت، وسارت فلم يكن إلا
هنيهة حتى ابتعدت عن الشطوط المصرية، والشمس قد
نفضت تبراً على الأصيل، وشدت رحلها للرحيل،
واصفرت غلاتها، وصارت كأنها الدينار. وأقبل شباب
الليل، بعدما شاب النهار.

وفي الساعة الأولى نزلنا إلى قاعة الطعام ، فتناولنا
العشاء . ثم أخذ كلُّ منا مضجعه . فما انتبعت إلا وقد تبسم
الفجر ، فقممت لأداء المكتوبة . ولم تزل الباخرة توالي سيرها
إلى نحو الساعة الثامنة فظهر لنا جبل لبنان و قد اكتسى من
النبات ثوباً سندسياً أخضر . وفي الساعة العاشرة رست بنا
الباخرة في ميناء بيروت .

بيروت

وهي مدينة قديمة جميلة المنظر . و قد ذكرها الوليد بن
يزيد بن عبد الملك بن مروان في شعره بقوله :

إذا شئت تصابرت و لا أصبر إن شئت

و لا والله لا يصب ر في البرية الحوت

ألا يا حبذا شخصاً حمت لقياء بيروت

وهي ميناء تجاري مهم جداً على شاطئ الأبيض ،
مشهورة باعتدال هوائها ، وكثرة خيراتها . وقد وصلتها السكة

الحديدية بدمشق وحمص وحماء . وعدد سكانها ٨٠ ألفاً .

ولما كنت في الباخرة تعرفت بالحاج عبد الله علي رضا
من تجار جدة ، وكان قاصداً إلى طرابلس الشام ، فأشار إلي
أن أنزل معه بالفندق المسمى بقصر البحر . فنزلت معه . فإذا
به قصر شامخ جميل يحيط بجهتيه البحر . ووقفت على
قصيدة قالها شاعر العصر معروف الرصافي في مدح الفندق ،
وقد كان نازلاً به في سنة من السنين . وهي :

لعمرك إن قصر البحر قصر به يسلمو مواطنه الغريب
وتمتليء العيون به ابتهاجاً إذا نظرت و تشرح القلوب
ومنها :

يقبّل جانبيه البحر حتى كأن البحر مشغوف كئيب
أحاط به فكان له رقيباً ومغناه الأنيق له حبيب
وما هذا التموّج من هواء ولكن من هوى ، فهو الوجيب

كأنَّ الموج في الدأما^(٨٥) رجال وهذا القصر بينهم خطيب
تخاطبهم مبانيه فيعلو من الأمواج تصفيق مهيب
تلم به المسرات ازدياراً^(٨٦) فتعرفه وتجهله الكروب
وهي طويلة.

وبينما أنا في الفندق إذ قدم ابن عمِّي الأخ راشد بن
محمد البرواني ، فسُرَّ كلُّ واحد منا برؤية أخيه. وأخبرني أنه
ورد المدينة منذ إحدى عشر يوماً من دمشق .

ثم خرجنا نرود أكناف المدينة . وإذا هي مدينة واسعة
الرقعة طيبة البقعة ، وبها شوارع واسعة ، ومبان فخيمة. أكثر
شوارعها يخترقها المركبة الكهربائية. وبها عدة مدارس . وهي
مشهورة بمطابعها الموصوفة بجودة الطبع . إلا أنه لم يزل قسم
من المدينة باقياً على هيئته القديمة .

وعادة أغلب تجار بيروت إذا غربت الشمس قفلوا

(٨٥) الدأما : تدأم تداخل وتراكم ، والدأما البحر . اللسان .

(٨٦) ازديار : مصدر بمعنى زورة .

دكاكينهم، وراحوا إلى منازلهم، فهي طول الليل مقفلة. فإذا مررت بين هذه الدكاكين بعد الغروب استوحشت منها، فلا ترى من يجوس خلال تلك الديار، وصحَّ أن تتمثل بقول الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا

أنيس و لم يسمر بمكة سامر

وبعد ما طوفنا قفلنا إلى الفندق ولزمناء ليلاً؛ طلباً للراحة. وفي هذه الليلة عقدت النية على الشخوص إلى دمشق الشام التي يهتز لذكر اسمها طرباً قلب كل سامع. وبت ليلتي وأنا في هاجس من رؤية مدينة دمشق .

وفي الصباح انطلقنا إلى السكة الحديدية، وكانت إذ ذاك الساعة الأولى. فركبنا القطار، فسار بنا يطوي الأرض. وبعد هنيهة دخلنا في نفق وظلمة تحت جبل، وخرجنا منه وانتهينا إلى نفق آخر. ولم نزل نخرج من نفق وندخل في آخر إلى أن

طلعنا من جبل لبنان . ولما ارتفعنا عن سطح البحر راق لنا
منظر البحر . والجبل كله مجلل بالكروم ، وهي بدون
عروش ، ولا ترتفع عن شبرين . وترى عناقيد العنب تتدلى
إلى الأرض .

ولم يزل القطار يخترق بنا الجبال الشمّاء ، وهو يتلوى
ويتعرج في سيره يمنة ويساراً ، يصعد بنا تارة ويهبط
أخرى ، إلى أن جاوزنا لبنان . فانتهينا إلى سهل فسيح تشرح
برؤيته الصدور . وبعد قليل وصلنا محطة تُسمّى رياق ،
والشمس قد بلغت كبد السماء فوقف بنا القطار هنيهة . ثم
سار بنا في طريق تحف به من جانبيه الأشجار من التفاح
والمشمش والخوخ والرمان والتين ، وقد مدت أغصانها على
الطريق ، واشتبكت . وعلى شمالنا نهر يسايرنا . واستمر الحال
على هذا المنوال حتى بلغنا محطة دمشق ، وكانت الساعة ١١
فنزّلنا وتوجهنا إلى الفندق المُسمّى بلوكندة القدس (٨٧) .

(٨٧) لوكندة : كلمة فرنسية تعنى النزل أو الفندق الصغير .

دمشق

يقال لها جيرون و جلق و الفيحاء و الشام . قيل إنها من أقدم مدن العالم . قد استولى عليها الآشوريون و البابليون و المصريون والفرس واليونان و الرومان .

وفي سنة ١٤ للهجرة فتحها المسلمون و استعمل عليها عمر رضي الله عنه معاوية بن أبي سفيان . ثم إنه في سنة ٤١ بايعه الناس بالخلافة فيها ، ومن ذلك الحين تأسست دولة بني أمية ، وجعلت دمشق قاعدة المملكة الإسلامية . وبلغت دمشق في ذلك العهد قمة مجدها . وعدد ملوكها من الخلفاء ١٤ ، أولهم معاوية ، وآخرهم مروان الثاني . وفي سنة ١٣٢ هـ حصر دمشق عبد الله بن علي قائد عساكر السفاح من بني العباس بعد أن هزم مروان شر هزيمة ، واستولى عليها .

ثم لم تزل تتناوبها اليد الغالبة إلى أن استولى عليها السلطان سليم العثماني سنة ١٥١٦ م ، فدخلت في حوزة

العثمانيين من ذلك الحين ولا تزال^(٨٨) . و أما مدينة دمشق فهي كثيرة البساتين والمياه في مستوى من الأرض . تحيط بها من جميع جهاتها الجبال . وبها جبل قاسيون . فيها مغائر كثيرة ، و كهوف و آثار الأنبياء والصالحين .

وقد أكثر الناس والشعراء في وصفها و وصف غوطتها . قال أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي : " جنان الدنيا أربع ؛ غوطة دمشق ، وصغد سمرقند ، وشعب بوان ، وجزيرة الأبله . وقد رأيتها كلها ، وأفضلها دمشق " .

وقال ابن جبير : " و أما دمشق فهي جنة المشرق ، وخاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها . وعروس المدن التي جليناها . قد تحلت بأزهار الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين . وحلت من موضع الحسن بالمكان المكين . وتزينت في منصتها أجمل تزيين . ظل ظليل وماء سلسبيل . تنساب مذانبه انسياب الأرقام بكل سبيل ورياض . و قد سئمت

(٨٨) في أيام رحلته من سنة ١٩١٤م .

أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ ، فتكاد تناديك بها
الصم الصلاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب .
وقد أهدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر ، والأكمام
بالتغر . وامتدت بشرقها غوطتها الخضراء امتداد البصر " .

قال شرف الدين بن محسن (٨٩) :

دمشق فبي شوق إليها مبرح وإن لجّ واشٍ أو ألحَّ عذولُ
بلاد بها الحصباء درٌّ وتربها عبير وأنفاس الشمال شمولُ (٩٠)
تسلسل فيها مأوها وهو مطلق وصحَّ نسيم الروض وهو عليلُ

وقال العرقلة الدمشقي الكلبي :

أمّا دمشق فجنتات معجلة للطالبيين بها الولدان والحورُ
ما صاح فيها على أوتاره قمر إلا وغنّاه قمري و شحرورُ
ياحبذا و دروع الماء تنسجها أنامل الريح إلا أنها زورُ

(٨٩) شرف الدين محمد بن نصر الله بن مكارم بن الحسن (٥٤٩-٦٢٠هـ/١١٥٤-١٢٣٢م) .

(٩٠) الشمال الريح الباردة التي تهب من الشمال . الشمول اسم من أسماء الخمرة .

وقال أبو الحسن علي بن موسى الغرناطي (٩١) :

خيمٌ بجلق بين الكأس والوتر في جنة هي ملء السمع والبصر
ومتّع الطرف من مرأى محاسنه وروض الفكر بين الروض والنهر
وأنظر إلى ذهبيات الأصيل بها واسمع إلى نغمات الطير في الشجر
وقل لمن لام في لذاته بشراً دعني فإنك عندي من سوى البشر
وقال فيها أيضاً :

أما دمشق فجنة ينسى بها الوطن الغريب
لله أيام السبو ت بها ومنظرها العجيب
انظر بعينك هل ترى إلا محباً أو حبيب
في موطن غنى الحما م به على روض القضيّب
وغدت أزاهر روضه تختال في فرح وطيب

وقال الصنوبري (٩٢) :

صفت دنيا دمشق لقاطنيها فلست ترى بغير دمشق دنيا
تفيض جداول البلور فيها خلال حدائق ينبت وشيا

(٩١) وتنسب الأبيات لعبد الرحمن بن محمد بن كمال الدين محمد الحسيني (١٠٤٨-١٠٨١هـ/١٦٣٨-١٦٧٠م) .

(٩٢) أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار الضبي الاتطائي .

مكللة فواكههن أبهى الـ مناظر في مناظرنا وأهيا
فمن تفاحة لم تعد خذاً و من أترجة لم تعد ثديا

ويقدّر عدد سكانها بنحو ٣٠٠٠٠٠ نسمة (٩٣)، أكثرهم
من المسلمين العرب . وأما هواؤها فمعتدل جيد إلا في
الخريف بسبب تكاثر المستنقعات . و تحيط بالمدينة بساتين
الفاكهة، وهي الغوطة تمتد بضعة أميال إلى كل ناحية.
يخترقها النهر .

والمياه في دمشق و غوطتها لا تسل عن كثرتها . حدّق
ولا حرج . فقلّ أن تمرّ بجائط إلا و الماء يخرج منه في أنبوب
إلى حوض . أو تدخل داراً إلا و في وسطها فسقية يتدفق منها
الماء . و من أنهرها بردى و يزيد والدبران و ثورا والقنوات
وباناس و عقربا . و قال بعض الشعراء (٩٤) يذكر هذه الأنهر
من قصيدة :

(٩٣) خمسمائة ألف نسخة .
(٩٤) الأبيات لعناد الدين محمد بن محمد بن صفى الدين بن نفيس الدين الأصبهاني
٥١٩-٥٩٧هـ / ١١٢٥-١٢٠١م .

إلى ناس باناس لي صبوة لها الوجد داع و الذكرى مشر
يزيد اشتياقاً و ينمو كما يزيد يزيد و ثورا يثور
ومن بردى برد قلبي المشو ق فيها أنا من حره مستجير
وقال حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه يذكر
بردى :

لله درُّ عصابة نادمتهم
يوماً بجلق في الزمان الأول
أولاد جفنة حول قبر أبيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم
بردى يصفق بالرحيق السلسل
وكان الفندق الذي نزلت فيه على شارع يخترقه في
وسطه نهر بردى. و يحف بالنهر من جانبيه أشجار تفيء
ظلالها عليه ، والشارع ممتد في خط مستقيم إلى خارج
المدينة. فما كان أبهج منظره .

ويوجد في خارج المدينة محلات للنزهة ، ومواضع للقهوة يتتابها كثير من الخلق ؛ لأن من عوائد أهل دمشق إذا آن وقت العصر خرجوا للتفرج إلى خارج المدينة بأهلهم وأولادهم ، يقضون ساعة أو ساعات هناك ، يتسامرون ويتجاذبون أطراف الحديث . وكنت في مدة إقامتي بدمشق أخرج في كل يوم عصراً للنزهة ، تارة خارج المدينة ، وأخرى إلى الصاحية . وهي قرية جميلة في سفح جبل قاسيون ، تشرف على دمشق وغطتها . وبها جملة مزارات ، منها مزار الشيخ محي الدين بن عربي رضي الله عنه .

وأما شوارع دمشق فأكثرها ضيقة ، ويحترق بعضها المركبة الكهربائية . وأسواقها مظلمة ، فوقها سقوف مستديرة ؛ اتقاءً للحر ، إلا أنها ذات أهمية كبرى في التجارة . وهي تحتوي على ٩٠ دكاناً . وكل منها خاص بصنف من أصناف المبيعات . وأما منازلها فداخلها أجمل من خارجها . فإذا دخلت داراً منها راق لك منظرها ، فتجد في وسطها فسقية يتدفق

منها الماء ، وحولها الأشجار وأنواع الرياحين والأزهار مما ترتاح له القلوب ، وتزول عنها الكرب .

أما بناؤها فالغالب من خشب وطين ، فيبنونها مع قطع خشب يعارضون بعضها ببعض ، ثم يطينونها ، فتجدها طبقات بعضها فوق بعض .

ويوجد بدمشق ٦٠ حماماً ، وهي من أحسن حمامات الشام انتظاماً واتقاناً ، و١٥٣ جامعاً ، أشهرها الجامع الأموي . فإنه جامع فخيم البناء ، جدير بالمدح والإطراء . وكان مكانه في أيام الأراميين هيكل عظيم لمعبودهم رامون . وفي أيام ثيودوسيوس ، حوله كنيسة مسيحية باسم القديس يوحنا (يحيى) .

ومازال كذلك حتى فتح المسلمون دمشق فدخل خالد بن الوليد رضي الله عنه من إحدى جهاتها عنوة ، فانتهى إلى نصف الكنيسة . ودخل أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه من الجهة الغربية صلحاً فانتهى إلى نصف الكنيسة .

فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذي دخلوه عنوة ، وهو الجانب الشرقي ، مسجداً ، وبقي النصف الذي صالحوا عليه ، وهو الجانب الغربي كنيسة بأيدي النصارى إلى أيام الوليد بن عبد الملك ، المتوفى سنة ٩٦ هـ ، فعوضهم منه الوليد فأبوا ذلك فانتزعه منهم قهراً . و كانوا يزعمون أن الذي يهدم كنيستهم يُجَنُّ . فبادر الوليد وقال أنا أول من يجن في سبيل الله ، و جعل يهدم بنفسه . فلما رأى المسلمون ذلك تتابعوا على هدمه . و أكذب الله زعمهم ، و أصبح كُله للمسلمين .

ثم استقدم البنائين من القسطنطينية و غيرها ، فكان عددهم اثني عشر ألف عامل . فبنوا الجامع ، و بالغوا في اتقانه و ترتيبه بالفسيفساء ، وأنواع من الأصبغة الغربية قد مثَّلتُ أشجاراً ، و فرَّعتْ أغصاناً ، منظومة بالفصوص ببدائع الصنعة ، ما يعجز عن وصفه الواصفون .

وكان الابتداء بعمارته في سنة ٧٧ هـ ، و قيل ٨٨ هـ .
ويقال إنه بلغ ما أنفق في بنائه مائة صندوق . في كل صندوق
٢٢٨ ألف دينار . فالمجموع ٢٢ مليوناً و ثمانمائة ألف دينار .
عبارة عن ١١ مليون وأربعمائة جنيه .

وحكي أنه ضجَّ الناس استعظاماً لما أنفق الوليد في
الجامع ، وقالوا أخذ بيوت أموال المسلمين و أنفقها فيما لا
فائدة لهم فيه . قال فخاطبهم وقال : " بلغني أنكم تقولون
و تقولون و في بيت مالكم عطاء ثمانى عشرة سنة إذا لم
تدخل لكم فيها حبة قمح " . فسكت الناس .

وكانت المصاييح التي تعلق فيه نحو ٦٠٠ مصباح من
الذهب الوهاج . فقد وصفه بعض أهل دمشق فقال : " هو
جامع المحاسن ، كامل الغرائب . معدود من إحدى العجائب .
قد زُوِّر (٩٥) بعض فرشهِ بالرخام . و أُلِّفَ على أحسن
تركيب ونظام . وفوق ذلك فص مقدارهُ متفقه وصنعتهُ

(٩٥) أي زخرف .

مؤلفة بساطه يكاد يقطر ذهباً، ويشتعل لها . وهو منزّه عن
صور الحيوان إلى صنوف النبات، وفنون الأغصان. لكن لا
تجنّى إلا بالأبصار . ولا يدخل عليها الفساد كما يدخل على
الأشجار و الثمار، بل باقية على طول الزمان ، مدركة
بالعيان في كلّ أوان. لا يمسه عطش مع فقدان القطر، و لا
يعتريها ذبول مع تصاريف الدهر .

وقد توالى على الجامع عدة نكبات ؛ من حريق وتهدم .
وجدد بناؤه بعدها إلا أنه ذهب أكثر رخامه فاستحال (٩٦).

وللجامع أربعة أبواب في شرقيّه باب جيرون، وفي
غربيّه باب البريد، وفي القبلة باب الزيادة ، وفي دبرها باب
الفرايس . وطوله مائتا خطوة ، وهما ثلاثمائة ذراع .

وأول دخولي الجامع دخلته من باب البريد، فأنتهيت
إلى صحن واسع، مساحته ٤٣٠ قدماً في ١٥٠ قدماً. ومنظر
هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها . وفيه ثلاث قباب،

ومن هذه القباب قبة للوضوء ، و قد استدار تحتها صهريج من الرخام كبير ، يجري الماء فيه دائماً من عمود رخام مثنى ، قد قام في وسط الصهريج . و يطوف بالصحن بلاط من ثلاث جهاته ؛ الشرقية والغربية و الشمالية . و هو قائم على أعمدة ، تقل أبواباً مقوّسة .

ثم تمشيت إلى جهة اليمين ، فدخلت المسجد . و هو قائم على أساطين و أقواس عديدة ، في ثلاثة صفوف ، وفي وسطه قبة شاهقة ، تُسمى قبة النسرة ؛ لعلوها ، أو مشابقتها للنسرة . والرواقان على جانبيها كجناحيه . و فيه أربعة محاريب لأصحاب المذاهب الأربعة . و فيه من التأنق والغرابة ما يعجز عن وصفه الواصفون . و بجانب القبة قبر سيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام ، يقال إن فيه رأسه .

وبدمشق عدة فنادق ومطاعم ، وكلها ظريفة ونظيفة ، والطعام فيها رخيص جداً . وبها كثير من الفواكه الطيبة اللذيذة ، وهي في غاية الجودة والرخص . ومن فواكهها

العنب والرمان والتفاح والمشمش والتين .

وبها عدة مشاهد ، منها قبر أبي الدرداء ، وقبر زوجته
أم الدرداء ، رضي الله عنهما . وقبور جماعة من الصحابة ،
رضي الله عنهم ، كفضالة بن عبيد ، وسهل بن الحنظلية ،
من الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت
الشجرة . و معاوية بن أبي سفيان ، و أثلة بن الأسقع ،
وبلال مؤذن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، رضي الله
عنهم . و كثير من قبور التابعين و الأولياء والصالحين . و بها
قبر السلطان صلاح الدين الأيوبي .

والدمشقيون أهل اللطف و الدعة و الكرم . فهم على
طريقة حسنة ، فلا تلق منهم إلا ذا وجه طلق ، و كلمة لينة .
ومن مآثرهم صون نسائهم و التزامهن البيوت ليلاً ، فلا
تظهر بالليل في زقاق من الأزقة قطعاً .

وكان انفصالي من دمشق صبيحة ٢٨ من شعبان ،

فركبت القطار راجعاً إلى بيروت . و وصلناها مساء ، فنزلت في الفندق ، وقضيت في اليوم التالي نهاري كله في النزهة . و في مساء ٣٠ من شعبان سافرت منها في الباخرة النمساوية قاصداً إلى يافا . وسارت بنا الباخرة طول الليل . و في الصباح لاحت لنا قصور يافا . و بعد ساعتين رست بنا ، فازدحمت القوارب تحت الباخرة ، و طلع أربابها إلى ظهر الباخرة ، وكلُّ منهم يسابق صاحبه في احتواء الركاب إلى قاربه ، فاشتد هناك الزحام و الخصام .

ومرسى يافا مشهور بشدة اضطراب أمواجه . فلم تهدأ فيه العواصف . ووافق قدومنا من فضل الله بعض السكون ، فحمدنا الله على ذلك . و نزلنا إلى البرّ بسلام ، و الحمد لله على المنّة .

يافا

هي مدينة قديمة طيبة الهواء. ومنظرها من خارجها أجمل من داخلها. ولم يزل قسم منها باقياً على هيئته القديمة ؛ فأغلب طرقها ضيقة ، غير مستقيمة ولا متساوية ، ففي بعض المواضع يُصْعَد إليها بدرج . وفي خارج المدينة عدة فنادق ، وقصور جميلة تحيط بها بساتين الفواكه والأزهار .

وفي الساعة السابعة بعد الظهر قصدت إلى المحطة للسفر إلى القدس الشريف . فركبت القطار ، فتحرك بنا نحو الساعة الثامنة . فسار بنا ، يطوي السهول والبطاح ، ويخترق الجبال والوهاد ، ويصعد بنا تارة ، ويهبط أخرى ، والجبال تكتنفنا من الجانبين . وعند الأصيل وصلنا محطة القدس الشريف . ووجدنا على المحطة عدة عربات ، فركبت في واحدة منها إلى أحد الفنادق .

القدس

ويُسمَّى بيت المقدس والبيت المقدّس . و كان قديماً يُسمّى اورشليم . و هي مدينة قديمة من أشهر المدن ، واقعة بين جبلين . بناها سليمان بن داؤود عليه السلام ، ثم خربها بخت نصر ، ثم بناها ثانياً بعض ملوك الفرس ، ثم خربه طيطوس ملك الروم ، ثم بُنى و رُمِّم .

ويحيط بالمدينة سور من بناء السلطان سليمان العثماني . و له ثمانية أبواب ؛ بعضها مقفل منذ أزمان . و لم يزل بناء المدينة على النمط القديم . و شوارعها ضيقة ، غير منظّمة إلا ما كان في خارج السور .

وفي القدس آثار كثيرة ، و أشهر الآثار الحرم الشريف . و بعد وصولي الفندق خرجت قاصداً إلى الحرم الشريف ، و لما انتهيت إليه دخلت من أحد أبوابه ، فأنتهيت إلى مساحة عظيمة ، وهي ساحة الحرم . و طول الحرم سبعمائة و اثنان

وخمسون ذراعاً . وعرضه أربعمائة وخمسة و ثلاثون ذراعاً . يحده من الشرق سور المدينة ، و وراءه وادي قدرون ، و من الجنوب سورها أيضاً . و من الشمال و الغرب أبنية المدينة . و كله مكشوف الفضاء سوى المسجد الأقصى فإنه مسقوف بصفة فائقة ، و أصبغة رائقة . و موقعه في الجانب الشرقي من الحرم . أساسه من عمل داؤد ، عليه السلام .

وفي وسط الحرم مصطبة^(٩٧) عظيمة في ارتفاع نحو خمسة أذرع . يصعد إليها الناس من عدة مواضع بدرج . وفي وسط هذه المصطبة قبة عظيمة ، و هي قبة الصخرة التي تزار . وبجانبها نحو الشرق قبة صغيرة اسمها قبة السلسلة . ونحو الشمال المعراج ، و قبة النبي ، و قبة الأرواح .

وأما قبة الصخرة فإنها بديعة الشكل جميلة المنظر ، جدرانها مثمثة الأضلاع . فيها أربعة أبواب ، طول الضلع الواحد ٧٧ قدماً وبعض القدم . وفي كل ضلع سبعة شبابيك .

(٩٧) بناء مرتفع قدر المتر أو المترين ، وغير مسقوف ، يكون داخل بناء أو فناء .

وأكثرها مصفحة بالرخام في غاية من الجمال . وأما قبة السلسلة فهي قائمة على أعمدة مكشوفة حسنة مليحة .

ومن عجائب الأشياء التي اتخذها سليمان ، عليه السلام ، في بيت المقدس كانت فيها سلسلة معلقة ينالها صاحب الحق ، ولا ينالها المبطل . قيل ومن هذه العجائب أنه بنى بيتاً وأحكمه وصقله ، فإذا دخل فيه الفاجر والورع تبين الفاجر من الورع ؛ لأن الورع كان يظهر خياله في الحائط أبيضاً ، والفاجر يظهر خياله أسوداً .

وأما قبة المعراج فيقال إنها المكان الذي عرج منه عليه الصلاة والسلام إلى السماء . دخلت قبة الصخرة فإذا هي قائمة على أعمدة من المرمر ، مصفحة أسفلها بالنحاس ، وفي وسطها الصخرة الكريمة . وهي صخرة كبيرة يحيط بها حاجز . وطول الصخرة ٥٨ قدماً ، وعرضها ٤٤ قدماً ، وعلوها معظمه ستة أقدام فوق أرض البناء ، المحيطة بها . وتحتها مغارة ، ارتفاعها نحو قامة ، ينزل إليها درج . فنزلت ،

و لم يتأت لي أن أرى ما هناك لشدة الظلمة . و أمّا حائط القبة من داخلها فكلُّه مزخرف بالفسيفساء على أحسن ما يكون من الزخرفة والإتقان . وكلُّها مفروشة بالطنافس النفيسة ، والسجاجيد الغالية الثمن .

ثم خرجت من قبة الصخرة فمشيت من بابها القبلي إلى أن نزلت من المصطبة . فمشيت أيضاً إلى أن انتهيت إلى المسجد الأقصى ودخلته من بابه الشمالي . و هو مسجد فخيم طويل فسيح ، يسع الألوف من المصلين ، معقود على أعمدة من المرمر ، مزين مثل زينة قبة الصخرة . وفي صدر المسجد محراب في غاية الحسن و التأنق .

ثم اتجهت إلى اليسار فانتهيت إلى محراب هناك ، قيل لي إنه المحراب الذي صلّى فيه سيدنا عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، حين قدم إلى بيت المقدس . و إن ذلك الموضع كان مكانه كنيسة ، والمحراب من بقايا بنائها . و لم تزل صور ورسوم للديانة النصرانية باقية عليه . و كذلك بعض حيطان

المسجد يقال إنه من بنائها . ويظهر أنه كذلك لأنه لا يختلف عن بناء الكنائس . وقضيت في زيارة الجامع ومشاهدة بديع صنعته ساعات ، وقد حضرت صلاة التراويح فيه ، فالحمد لله على ذلك ، ونسأل الله سبحانه وتعالى القبول .

وعدت إلى الفندق بعد هزيع من الليل ، و كان خاتمة المطاف و فاتحة الألفاف عند وصولي الفندق أن تعرفت بالشيخ الجليل ، ذي المجد الأثيل ، ذي الأخلاق المرضية ، و النفس الأبية ، من هو بأسنى المحامد مذكور ؛ السيد عبد النبي المذكور . فله دره من شهم يذوب طلاقة وبشرا ، ويحن للغريب لطفاً و برّاً . و هو من أعيان مصر من بيت شرف و مجد ، يناهض الخمسين . و قد ورد إلى بيت المقدس هو و أحد أنجاله قصداً لزيارة الأماكن المقدسة . و بما أنه كان في تلك الليلة مصمماً للعزم على زيارة الأنبياء عليهم أفضل الصلاة و السلام في الخليل أشار إلي في ذلك ، فعقدت النية معه . و قد أعدّ حضرته عربة للركوب .

ففي الساعة الثامنة ليلاً أتانا العرجبي (٩٨) وعربته ،
فأطرق علينا الباب ، فقمنا من مضاجعنا ، ونزلنا . وركبنا
العربة تجرها أربع جياد من الخيل . فسارت بنا إلى أن بدت
طلائع الصبح ، فنزلنا لأداء المكتوبة . ثم ركبنا ، ولم تزل
تجري بنا إلى أن وصلنا الخليل والساعة إذ ذاك نحو الساعة
الثالثة صباحاً . فترجلنا و توجهنا إلى جامع الخليل الذي فيه
قبور الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام .

فمررنا بين أسواق ضيقة و منازل قديمة إلى أن انتهينا إلى
الجامع . فدخلناه ، فإذا هو جامع فخيم يحتوي على قبور
إبراهيم وإسحاق ويعقوب وزوجاتهم ، عليهم السلام ،
وقبر يوسف ، عليه السلام . وكلُّ منها مكسو بالدياج المطرَّز
بالآيات و الكتابات والنقوش الجميلة . و على كلِّ قبر اسم
صاحبه ، و آيات تتعلق به . وطول الجامع ١٩٧ قدماً ،

(٩٨) العرجبي : سانس عربة تجرها الخيل .

وعرضه ١١١ قدماً . قيل إن أصله من بناء اليهود ، ثم صار كنيسة ، وبعد الفتح جعله المسلمون جامعاً .

وأما مدينة الخليل فهي مدينة قديمة ، كانت مأوى الأنبياء ومسكنهم ، عليهم أفضل الصلاة والسلام . وكانت قديماً تُسمى حبرون . تبعد عن القدس الشريف ١٨ ميلاً . عدد سكانها الآن نحو ١٠٠٠ نسمة ، أكثرهم المسلمون .

وبعد ما فزنا بزيارة أولئك الأنبياء ، عليهم أفضل الصلاة والسلام قفلنا راجعين إلى القدس الشريف . ووصلناها الساعة الثامنة مساءً . وبعد الوصول خرجت لزيارة بعض المشاهد بالقدس . وفي الحرم الشريف قبر سيدنا سليمان ، عليه السلام ، وعلى القبر كسوة ، وعليها اسم صاحبة السيرة المرضية ، والهمة السنية بنت سالم بن سعيد الحارثية ، والددة الشيخ سالم بن سلطان الريامي . فإنها لما قدمت إلى القدس الشريف كست القبر بهذه الكسوة ، وعملتها على نفقتها تقريباً إلى الله ، والله يجزي المحسنين .

وفي تلك الليلة حضرت أيضاً لصلاة التراويح في الجامع المكرّم. وبتتنا في الفندق. وفي الصباح انطلقنا إلى المحطة للسفر إلى يافا. فركبنا القطار ، و تحرك بنا نحو الساعة الثانية صباحاً. و عند الظهر وصلنا يافا بسلام ، و نزلنا في لوكندة مصر. ثم قصدت مع السيد عبد رب النبي إلى وكالة البواخر الخديوية ؛ لابتياح التذاكر، وللاستعلام عن ميعاد السفر. فأخبرونا بأن الباخرة تزايل ثغريافا في مساء اليوم التالي. فقضينا بقية ذلك النهار في النزهة ، و دخلنا في أحد جوامع يافا فوجدنا في الجامع عدة مساكن يأوي إليها الغرباء والعلماء و الصلحاء و الفقراء ، فتلقى لكل واحد منهم مسكناً خاصاً به ، لا يزاحمه فيه أحد .

وفي مساء اليوم التالي سافرنا من يافا. و سارت بنا الباخرة طول الليل. و في الصباح رست بنا في مرسى بورت سعيد. و نظراً لتفشّي الطاعون ، أعاذنا الله منه ، في البلاد الشامية و ارتفاعه عن عهد غير بعيد منها فرضت الحكومة

توقيع الكشف الطبي على كل قادم من تلك الأطراف .
وبناءً على ذلك طلع إلى الباخرة أحد الأطباء ، فزار ركاب
الدرجة الأولى والثانية ، وأعطى كلاً منّا ورقة الجواز ،
فنزلنا . وأما ركاب الدرجة الثالثة فلم يتسنّ لهم التخلص
من الكشف الطبي إلا بعد ساعتين أو ثلاث ساعات .

وبعد وصولنا البرّ توجّهنا إلى دكان أحد أصحابنا في
بورت سعيد ، هو عبد الرحمن أبو عوف ، تاجر البضائع
الصينية ، فتركنا أهبتنا عنده ريثما يأتي ميعاد السفر إلى
القاهرة . وأرسل السيد عبد رب النبي خبراً عن وصوله
بتلفون إلى أولاده بالقاهرة ، وأنه سيقدم إليهم في ذلك
اليوم . وفي الساعة السابعة انطلقنا إلى المحطة ، وركبنا
القطار ، وبعد هنيهة تحرك بنا ووقف بنا على المحطات
المذكورة آنفاً ، إلى أن أتى القاهرة في الساعة ١١ مساءً ،
فوجدنا أولاد عبد رب النبي وجمهور أهله وأصدقائه
بانتظاره على المحطة . فتوجه هو ومن معه إلى بيته وتوجهت

إلى الفندق ، والحمد لله على السلامة.

وفي اليوم التالي أرسل إليّ السيد عبد رب النبي ولده ملتمساً مني التوجه إلى منزله . وتوجهت إليه ، فرغب مني أن أفطر عنده في ليلي رمضان ، فلم يسع لي إسعافه بذلك ، ففطرت عنده ست ليال تقريباً. كنت أتوجه إليه قبل الغروب.

وكان مجلسه في صحن داره ، فنحضر معه هناك حتى إذا آن وقت الإفطار أقبلنا على الفطور. وبعد الانتهاء قمنا إلى صلاة المغرب. وهي عكس عادتنا في بلادنا ، حيث تقدم الصلاة على الفطور. وبعد الصلاة تدار علينا فناجين القهوة ، وكاسات الشاهي. ثم يحضر عندنا بعض جيرانه لصلاة التراويح ، نصلي أيضاً في ذلك المكان صلاة العشاء والتراويح وبعد الصلاة يقوم أحد من القراء المشهورين بحسن القراءة ، ومعرفتها فيتلو القرآن بصوت شجٍ ، وأسلوب

لطيف يكاد تنخلع له النفوس شجواً وحناناً. ثم يقوم صاحبه فيحذو حذوه، وهلمّ جرا، إلى الساعة الثامنة ليلاً. ويحضر في هذا المجلس كثير من أجلة الفضلاء والعلماء للاستماع إلى القراءة. وقد تعرفت ببعضهم واستأنست بهم، جزاهم الله خيراً.

وليست عادة القراءة مختصة بحضرة المذكور بل مطردة عند جميع أغنياء مصر، فإنهم يرتبون القراءة للقرآن في ليلي رمضان في منازلهم. فإذا مررت بين هذه المنازل ليلاً في رمضان أدهشك سماع تلك الأصوات الشجية من كل جانب ما تملأ النفوس إنابة وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة.

وانتهت ليالي رمضان وأنا بالقاهرة. وحضرت صلاة العيد بها، فنسأل الله القبول ببركة الصيام، وختم الله لنا ولجميع المسلمين بالوفاء على الإسلام. اللهم آمين.

وبعد العيد كنت كثيراً ما أحاول الارتحال والعود إلى

الوطن فلم يتيسر لي ذلك إلا بعد مضيّ أيام ، فكان انفصالي من القاهرة وتوجهي إلى بورت سعيد للسفر في ١٥ من شهر شوال ، بعدما ودعت رفاقي و أودعتهم الله ، وشكرت فضلهم ، لاسيما الخل الوفي و أخي الصفي سعيد بن سيف المعمرى ، والأمير السيد سالم بن السلطان عبد الله ، والسيد عبد رب النبي المذكور وأولاده ؛ الذين غمروني بلطفهم وأنسهم بمدة إقامتي بالقاهرة. جزاهم الله خيراً وجزى جميع أصحابي الذين تعرفت بهم في أثناء سفري خير جزاء.

فلما أتيت بورت سعيد قصدت حالا إلى وكالة البواخر الفرنسية للاستعلام عن ميعاد سفر أول باخرة إلى زنجبار ، فأخبروني بأن الباخرة (كلادونيا) تسافر بعد ١٤ يوما. فاكترثت بهذه المدة ، وتوجهت إلى وكالة البواخر الطليانية ، فأخبروني بأنه ستسافر باخرتهم بعد خمسة أيام ، إلا أنه ستأخذ في سفرها إلى ممباسا ٢٦ يوما ، مع أنها لا تصل إلى

زنجرار. فاخترت السفر في الباخرة الفرنسية لكونها قاصدة إلى زنجبار ، و أنها تقطع المسافة بين بورت سعيد و زنجبار في ظرف ١١ يوماً . فتربصت لها إلى ميعاد السفر فسافرت ، وذلك في ٣٠ شوال مساء ، فولجنا القنال .

القنال

هو الترعة الموصلة بين البحر الأبيض و البحر الأحمر . يخترق برزخ السويس الذي يفصل البحرين عن بعضهما ، ويوصل أفريقيا بآسيا . يتديء من مدينة بورت سعيد ، ويصل إلى مدينة السويس ، فينتهي هناك باتصاله بالبحر الأحمر ، بعد أن يمر من وسط عدة بحيرات . وطوله ١٠٥ أميال وعرضه يختلف من ٥٨ إلى ١٠٠ متر . وعمقه ١١ متراً .

والذي أبدى فكرة إنشاء هذا القنال شخص نمساوي اسمه فردنيان دلسيس ؛ قنصل دولة فرنسا بمصر . فقدم للحكومة المصرية في سنة ١٢٧٢ هجرية طلباً في هذا الغرض

فقبل منه سعيد باشا ، و شرع في العمل في سنة ١٢٧٣ هـ .
وصار افتتاحه بالطريقة الرسمية في شهر نوفمبر سنة
١٢٨٦ هـ ، أيام إسماعيل باشا ، بحضور جملة من ملوك
الأورباوية . و أعدّ لهم وليمة فاخرة و احتفالاً باهراً .
و بلغت نفقة الاحتفال نحو مليون جنيه . و قد بلغت قيمة ما
أنفق في حفر القنال نحو عشرين مليوناً من الجنيهات
الإنجليزية . أما رسوم المرور فنحو ٦ فرنكات عن طن ،
و ١٠ فرنكات عن كل شخص . و تمرّ السفن فيه ليلاً ونهاراً .
و كان مرورنا فيه ليلاً . و يوضع في مقدمة الباخرة عند
المرور ليلاً سراج كهربائي قوي ، يأخذ بالأبصار ، تنعكس
أشعته على صفحات الماء .

فوصلنا السويس نحو الساعة العاشرة سحراً ، فكان
الزمن الذي اجتازته الباخرة فيه نحو ١١ ساعة . و عندما ذرّ
قرن^(٩٩) من الشمس اقلعت بنا الباخرة من ميناء السويس .

(٩٩) ذرّ قرن : ذر أي ظهر طرف منه . و قرن : الناحية أو الجانب .

ولم تزل توالي سيرها إلى أن رست في ميناء جيوتي صباح اليوم الخامس .

وجيوتي هذه بلدة صغيرة على السواحل الأفريقية ، بقرب باب المندب. وليس لها أهمية تذكر سوى أنها مرسى سفن الفرنسيين عندما تجتاز باب المندب. وغالب سكانها الصومال ، وفيها بعض من عرب حضرموت . وقابلت فيها الشيخ صالح بن أحمد المسكري ، و أكرم مثواي . وهو في موضع خارج المدينة يُسمَّى هنبلي . وقد اتخذ في ذلك الموضع بستاناً غرسه كله بشجر النخل ، تسقى بماء البئر . وبعد ما ودعته و تجولت قليلاً في المدينة عدت إلى الباخرة . وفي الساعة ١١ مساءً أقلت ، قاصدة إلى عدن. وفي الصباح رست بنا في مينائها. وظلت هناك إلى قبيل الغروب ، وعندئذ أقلت من الميناء باخرة حربية للإنجليز فانبرت باخرتنا تجري على إثرها .

وما زالت توالي سيرها إلى صباح اليوم السابع. وفي

ذلك الصباح أَلقت مرساتها في ميناء ممباسة، فتوجهت إلى البر، وقابلت أصحابي، وقدّموا لي ما لدّ وطاب من الطعام، فتناولته، وشكرت فضلهم. ثم ودّعتهم وعدت إلى الباخرة.

وتحرّكت قبيل الغروب قاصدةً إلى وطننا المحبوب. فما تبلّج (١٠٠) نور الصباح إلا وقد أسفرت طلعة بشائر القرب عن غياهب البعد، وطفح القلب عند ذلك سروراً. ففي الساعة الثالثة أَلقت الباخرة مرساتها في ميناء زنجبار. وبعدما وقع الفحص و السؤال على الركاب نزلنا، فوطئت أقدامنا أرض بلدة طالما رفلنا في مطارف (١٠١) نعمها، وسكنا منازل حرمها، بعد أن امتد غيابنا عنها ستة أشهر إلا خمسة أيام. وهكذا انقضت رحلتنا، والحمد لله أولاً وآخراً.

(١٠٠) تَكشَّفَ وعَمَّ.

(١٠١) مطارف: جمع مطرف أو مُطَرَف، وهي أودية من خز (حريز) مربّعة لها أعلام. لسان العرب.

تقريظ ابن دميمط :

قال العلامة الأديب ، والجهبذ الأريب السيد الحبيب
أحمد بن أبي بكر بن سميّط مؤرخاً تمام طبع هذه الرحلة ،
متعنا الله بحياته :

سر مجداً مسير مولى سري	رافع الطرف للعلا المعني
بلغته المنى عزيمة نفس	دأبها اكتساب الثناء الوفي
كأبي الحارث المهذب طبعا	وارث المجد من أبيه التقي
انهض العزم للسياحة فازدا	دله العلم بالذكاء السني
هذه الرحلة التي يرتضيها	كل ندب مكيل أريحي
ولنشر المطوي منها تحرّى	للاخلاء بطبعها المرضي
وتجلّى تاريخها ضمن بيت	في سناء اللفظ الأنيق الجلي
انق الطبع رحلة لأبي	طاب أصلاً محمد بن علي
١٥١-١١٢-٦٣٨-٤٣	١٢-١٢٢-٩٢-١٦٣-١٣٣٣

تقريظ ابي مسلم البهلاني :

ولما اطلع على هذا السفر الشيخ الفاضل ، و العالم
الكامل ، ناظم سلك البلاغة ، و قائد زمام البراعة ،
الشاعر الشهير أبو مسلم ناصر بن سالم بن عُدَيْم الرواحي
أرسل لنا هذه الكلمة الدريّة ، وهي :
أيها الكاتب الفاضل ،

إن رحلتكم حبة من فريد الجواهر ، تناولتها الثريّا
لتجعلها ثامنة سبعتها ، أو حبة في عنقودها ، أو فصاً لخاتم
كفها ، أو واسطة لعقدّها . فإن لم يكن ذا فرحلتكم قطعة من
النور ، دلّت على مكان نبوغكم في الكتابة . (أبو مسلم)
ثم أتبعها بقصيدة ربّانة من نظمه ؛ مؤرخاً تمام الطبع ،
وهي :

تَجَوَّلْ في بساتِ الأرض شيئاً

لتنظر صنعة الملك البديع

فلم تك صخرة جبلت فقرت (١٠٢)
فلست إلى المسير بمستطيع
وهبت العقل والإحساس قصداً
لتدرك فهم آيات الصنيع
تهيات الكوائن مشرقات
لتدرك كيف اتقان الجميع
جداك (١٠٣) الله للنظر اعتباراً
بسفلياته و إلى الرفيع
وأعطاك القوى وهداك منه
وسهل كل مسلك منيع
أتعجز أن تجول على بساط
فسيح الشكل منتظم مربع (١٠٤)

(١٠٢) جبلت فقرت : طبعت على الثبات .

(١٠٣) جدى : أعطاك وأكرمك .

(١٠٤) مربع : جميل ورائع .

أتقنع بالجمود على خمول
خمول المرء في طي القنوع
نزوعك في بلاد الله درس
يفيدك معظم العلم النفوع
تفسح بينها تتقن علوماً
عويصات على الكسل الوديع
و من لزم الجمود و لم يشاهد
نفى من جهله حق الوقوع
وعادى كل مسموع غريب
وطابق شيمة الطبع الوضع
كأنك و الجمود بكسر بيت
حصاة الأس أو بعض الجذوع
ألم تر أن نفسك في انبساط
إذا أرسلتها بين الربيع

ألم تدرك بأنك في انقباض
وأنتك وسط دارك كالمضيق (١٠٥)
ولو حُدثت عن عجب بغيبي
جعلت الصدق كالكذب الفضيع
وبين الأرض أطلال صموت (١٠٦)
إلى الإرشاد كالداعي السميع
تريك متى تشاهدها عظات
يعود القلب منها كاللسيع
وتسمع من لسان الحال منها
فضائل للأصول على الفروع
وتدهشك الطبيعة كيف كانت
بإذن الله في الشكل البديع
وتدرك كيف أخلاق البرايا
ومختلفات عادات الجميع

(١٠٥) المضيق : النائه .

(١٠٦) صموت : غير ناطقة .

ومختلف اللغى وذهاب يحيى (١٠٧)

إلى أدب سوى أدب الربيع

و ما نتج الترقّي الآن حتى

تجلّى العصر كالسيف الصنيع

و ما بلغت صناعتنا إلى أن

سلكنا أبحر الجو الرفيع

وكان جلادنا فوق العوادي

بأسلحة كبارقة الصديع (١٠٨)

فصرنا في سوابق سابحات

بقاع البحر مزدحم الجموع

وأنت على جمودك لا تبالي

بجهلك و هو كالمسمّ النقيع

(١٠٧) يحيى : ربما أرد به الانسان مطلقاً ، واستخدم اسم يحيى للدلالة على الحيوية والحركة .

(١٠٨) الصديع : الصبح . وأصدع بالأمر أي أظهره . اللسان .

كأنك بين هذا الكون وحش
قنعت من الفواكه بالضريع (١٠٩)
ودونك من جمال الكون وجه
بزهرة حسنه كم من صريع
تمثّل منه للأبصار شكل
ولا كجمال حالية شموع (١١٠)
تجول من جمودك للمعالي
بنفس مضرس حر ضليع
وفتش عن خبايا في الزوايا
بواسطة التنقل والنزوع
ألم تر رحلة دلت لفضل
لدى الرحّالة الضرب الزميع (١١١)

(١٠٩) الضريع : العوسق الرطب ، وهو أيضاً طعام أهل النار وهذا لا يعرفه العرب ، والضريع القشر الذي على العظم تحت اللحم. اللسان. وكل تلك المعاني دالة على الحقارة .

(١١٠) الشموع: الجارية الحسنة الطيبة النفس. قال الشماخ: ولو أني أشاء كنت نفسي إلى بيضاء بهكنة شموع . العين

(١١١) الزميع: أزمع على الأمر أي نوى وقصد. وأسم الفاعل مزمع. وربما كان الزميع صيغة مبالغة أي كثير الإزماع . ولم نجدها في المعاجم .

تنزه في عواصم شاسعات
فعاد بفخره بعد الشسوع
وعى طرقاً تحقّقها فجأت
كتاباً نَمَّقته يد الربيع
حوى أدباً و تاريخاً و علماً
وأفكاراً مشعّعة السطوع
تلقى العصر طلّعه ببشرى
وحنّ إليه من قبل الطلوع
أرى زمن المعارف في نموٍ
وإشراق الفضيلة في نصوع
لعل صنائع الأيام عادت
بمرغوب العقول بلا شفيع
يدل لما ادعيت سفور برق
على قسّمات ذا السفر البديع

تمنى الفضل أن يرقى بنوه
فقد صاح الرقيُّ برأس ربيع (١١٢)
ومد نجمت فضيلة ذي حفاظ
على الآداب كالنجم اللموع
حتمت لها على قلمي فروضاً
فقام إلى السجود مع الركوع
لقد أزمعت ترك الشعر لكن
له جذب يخلق بالهجوم
فما أمكنت هم الترك حتى
عراني هم داع بالرجوع
فيا من طرّز الآداب دراً
وياقوتاً برحلته النفوع
فإنك قد شمخت بنفس حرٍ
إلى مرقى ذوي الهم الرفيع

(١١٢) ربيع : الربيع والرّبيع هو الطريق المنفرج عن الجبل . اللسان .

وجئت بمورد للناس عذب

يمثل طعم شهد في بديع

بدائع حاكها ذهن ذكي

تشير لها المعارف بالخضوع

شكرت لك الصنيع وأي حرة

كريم لا يرى شكر الصنيع

وهبت الشعر لسناً فاستطالت

تنمق فيك آيات البديع

ومن تنميقها ما أرختها... (١١٣)

بقدر النفس فعل المستطيع

٦ ٣٦٠ ٢٢١ ١٨٠ ٦٢٠

قال بعض أصحاب المؤلف مؤرخاً أيضاً :

بشر لرحلتك السنية قد علا

وجه البلاد فصار يغبطه الملا

(١١٣) هكذا في النسخة المطبوعة بمطبعة النجاح .

الفتها حفظاً لما شاهدته

منذ الذهاب إلى الإياب مفصلاً

فجنت بها الألباب يانع فكرة

من كل دوح اللفظ أثر و أنجلي

وعلا بنو الوطن العزيز منابراً

من فخر ما فعلوا بأحسن مجتلى

أوفى مؤلفها لها ما قد رأى

في مصر من عجب يطيل تأملاً

وكذاك أرض الشام أودع ذكرها

فيها فأحسن في المقال و أجزلاً

وبه أهني القارئ لبثها

حلو الحديث لهم يفصل مجملاً

هذا الكتاب وأنتم قراءؤه

فليشهد الذوق السليم بما حلا

فهو التفكّه للظريف ومن له

ظماً القراءة منه منها

تاريخه (لقب أغر) أنني

بالكلمتين حسبته فتكملاً

(١٣٣٣)

برهان مكلاً

المصادر و المراجع :

شذى العبير الروحاني

بذكر بعض أخبار العلامة محمد بن علي البرواني

- جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار ، الشيخ سعيد بن علي المغيري، وزارة التراث القومي والثقافة ، الطبعة الرابعة، ٢٠٠١م
- زنجبار شخصيات وأحداث، الشيخ ناصر بن عبد الله الريامي ، دار الحكمة لندن، الطبعة الاولى، ٢٠٠٩م.
- إيضاح التوحيد بنور التوحيد ، الشيخ سعيد بن ناصر الغيثي، الجزء الأول ، معهد القضاء الشرعي والوعظ والإرشاد ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م.
- الإرشاد في شرح مهمات الاعتقاد ، تأليف الشيخ سيف بن ناصر الخروصي ، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
- الابتهاج في بيان اصطلاح المنهاج ، تأليف السيد أحمد بن أبي بكر بن سميط ، الطبعة الثانية ١٩٦١م.

- مخطوط ديوان الشيخ عبدالرحمن بن ناصر الريامي ، رقم ١٣٣٥ ، مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدى، الشراذى – ولاية السيب.
- مخطوط شذى الأزهار من مجالس الحبيب سالم بن حفيظ في زنجبار، مكتبة العلامة الحبيب علي المشهور بن محمد بن حفيظ ، تريم- حضرموت.
- دراسات عن العرب والإسلام في شرق افريقيا ، تأليف السيد حامد بن أحمد مشهور الحداد ، دار المنهاج- الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.
- من مقامات أبي الحارث ، الشيخ محمد بن علي البرواني ، طبعة وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ، ١٩٨٠ م.
- الشيخ سعيد بن ناصر الغيثي .. حياته وأثاره ، الشيخ سلطان بن مبارك الشيباني ، منتديات المجرة الاسلامية.
- شجرة نسب لقبيلة البراونة ، رسمها حمود بن علي بن حمود الحارثي و صححها الشيخ سالم بن محمد بن سعيد بن عبدالله البرواني ، عام ١٩٦٦ م.

- ترجمة الشيخ سيف بن ناصر الخروصي، للشيخ سلطان بن مبارك الشيباني .
- صحافتنا العُمانية.. في ذكراها المئويّة ، مُختارات من صحافتنا العُمانية، للشيخ سلطان بن مبارك الشيباني .
- معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين ، موقع المعجم على الشبكة الالكترونية.
- ترجمة الإمام الداعية أحمد مشهور بن طه الحداد ، السيد حامد بن أحمد الحداد ، دار الفتح الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.
- ديوان أبي مسلم البهلاني، اعتنى بجمعه الشيخ سالم بن سليمان بن سالم بن عديم البهلاني، نسخة مصورة من المخطوط بمكتبة جامعة السلطان قابوس.
- الألفية الواضحة الملقبة بالجواهر المنظمة ، تأليف الشيخ برهان بن محمد مكلّا.
- أعداد - جريدة الفلق - زنجبار، دار المخطوطات والوثائق ، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان .
- أعداد - جريدة النهضة - زنجبار، دار المخطوطات والوثائق ، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان .

- مجلة نزوى ، مجلة فصلية ثقافية ، العدد (٢٤) اكتوبر ٢٠٠٠م / رجب ١٤٢١هـ .
- بعض علماء الشافعية في شرق إفريقيا (باللغة السواحيلية) ، تأليف الشيخ عبدالله بن صالح الفارسي .
- مقابلة مع الشيخ حمد بن سالم بن محمد الرواحي ، ٢٠٠٩م .
- مقابلة مع الشيخ عبدالله بن حمد بن سليمان الحارثي، ٢٠٠٨م .
- عدة لقاءات مع الوالدة فريدة بنت محمد بن علي البروانية، ٢٠٠٨م ، ٢٠٠٩م .
- عدة لقاءات مع الوالدة نائلة بنت محمد بن علي البروانية ٢٠٠٨م ، ٢٠٠٩م .

الملاحق

١. صورة الشيخ محمد بن علي البرواني عندما كان صغيراً .
٢. صورة الشيخ أثناء خروجه من برزة العيد .
٣. وثيقة بخط الشيخ محمد البرواني .
٤. صورة لمحصول القرنفل لمزرعة الشيخ محمد في اندغا .
٥. صورة لمزرعة الشيخ في دونجا .
٦. صورة لبعض ضيوف الشيخ في استراحة الشاي

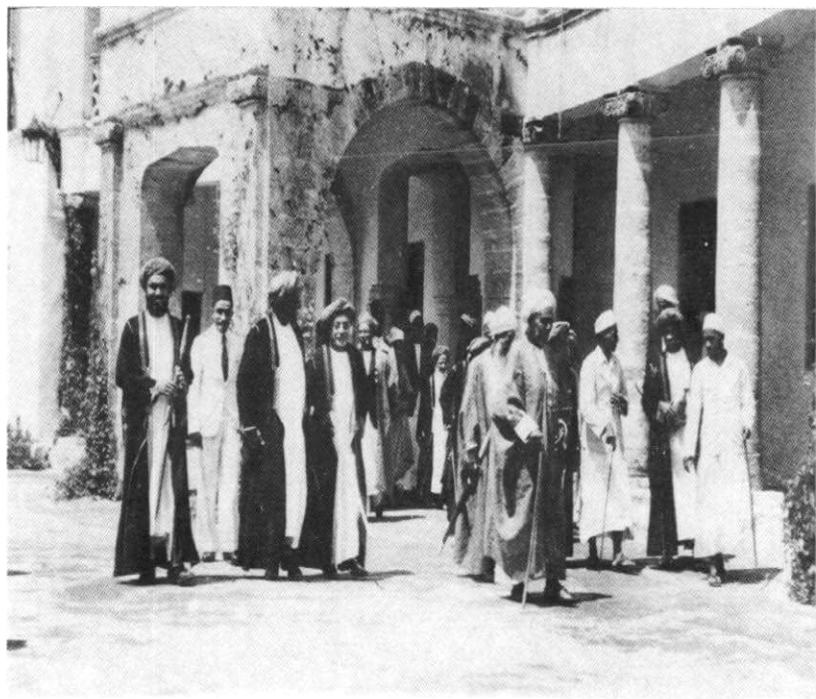
ملحق (١)

صورة الشيخ محمد بن علي البرواني عندما كان صغيراً



ملحق (٢)

الرابع من اليسار أثناء خروجه من منبرة العيد



ملحق (٤)

صورة لمحصول القرنفل لمزرعة الشيخ محمد في اندغا



للشيخ محمد بن علي أربعة مزارع :

- الأولى : في دونجا ومحصولها من البرتقال والأناس والموز والمانجو والفيفاي والاستعفل والشوك شوك .
- الثانية : في اندغا واعتمادها على القرنفل .
- الثالثة : في ميووني ويزرع فيها الأرز.
- الرابعة : في فووني وكانت محل إقامة أخيه عبد الرحمن ومحصولها متنوع.

ملحق (٥)

صورة لمزرعة الشيخ في دونجا



ملحق (٦)

صورة لبعض ضيوف الشيخ في استراحة الشاي



المحتويات

م	الموضوع	الصفحة
١	تقديم	٣
٢	شذى العبير بذكر بعض أخبار العلامة محمد بن علي البرواني	٧
٣	نسبه	٨
٤	نشأته	١٠
٥	صفاته	١٣
٦	أعماله	١٥
٧	آثاره العلمية	١٨
٨	مشائحه	٢٢
٩	العلاقة العلمية والأدبية والاجتماعية بين الشيخ محمد بن علي البرواني ورجال زمانه .	٣٦
١٠	وفاته	٥٣
١١	رحلة أبي الحارث	٥٦
١٢	السفر	٥٧
١٣	عدن	٦١
١٤	السويس	٦٣
١٥	مصر	٦٦
١٦	القاهرة	٧٠
١٧	شوارعها	٧٢
١٨	متاحفها	٧٦
١٩	متنزهاتها	٧٨

م	الموضوع	الصفحة
٢٠	جوامعها	٨٠
٢١	مزاراتها وموالدها	٨٤
٢٢	مفارقات	٩١
٢٣	عمرانها	٩٢
٢٤	مصر هبة النيل	٩٥
٢٥	ضواحي القاهرة	١٠١
٢٦	أرياف مصر	١١٠
٢٧	عوائد أهل مصر	١١٣
٢٨	السفر إلى الشام	١١٨
٢٩	بيروت	١٢١
٣٠	دمشق	١٢٦
٣١	يافا	١٤٠
٣٢	القدس	١٤١
٣٣	القنال	١٥٣
٣٤	تقريظ ابن سميط	١٥٧
٣٥	تقريظ أبي مسلم البهلائي	١٥٨
٣٦	المصادر والمراجع	١٦٩
٣٧	الملاحق	١٧٣

الحمد لله